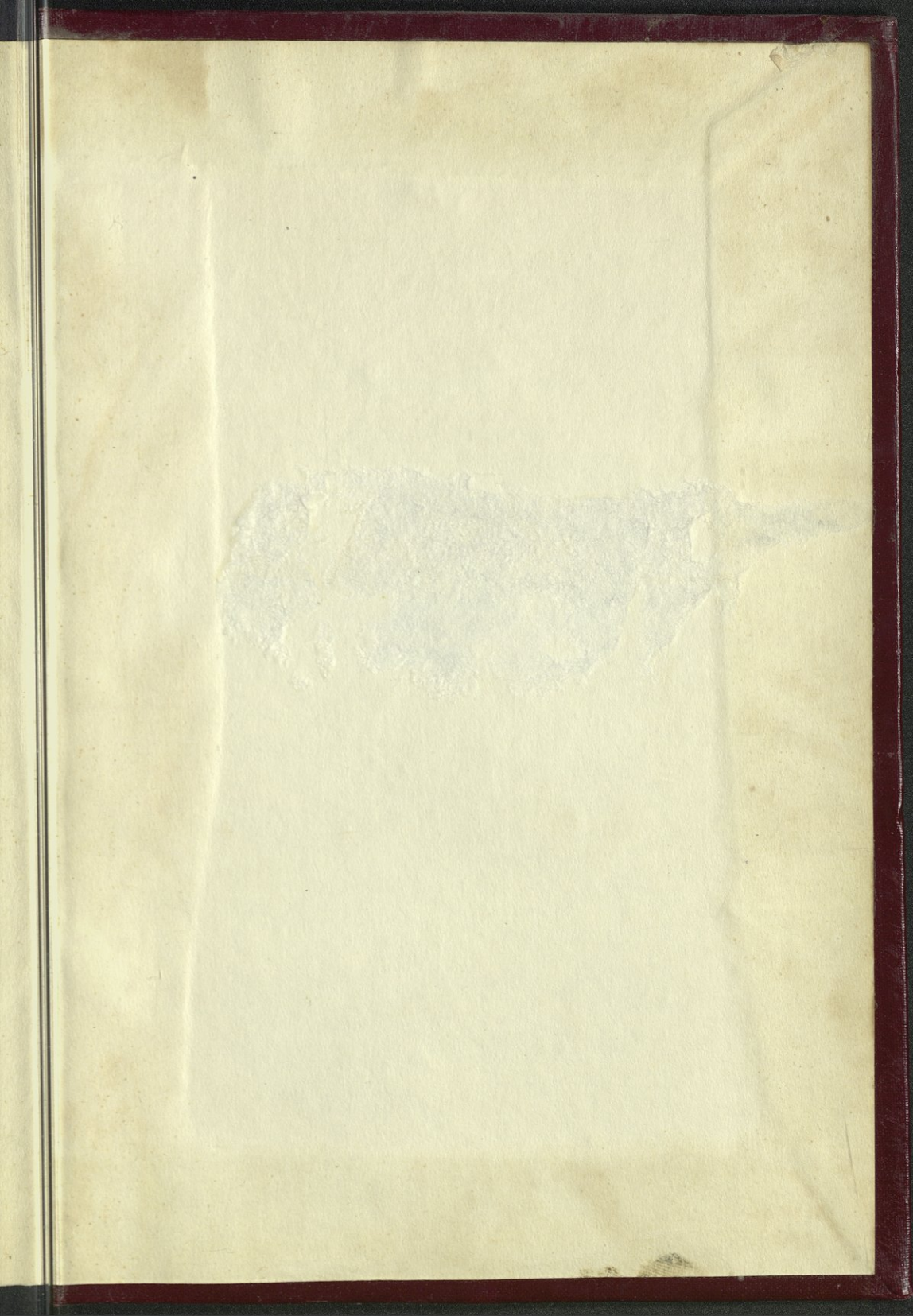


القاضي

علي مسرح الحياة



[illegible]

207 Feb. 19:54

892.78

Q254 Ya A

v.1

طه محمد القاضي



على منسرة الحياة

الجزء الاول

الطبعة الاولى

١٩٥٣ - ١٣٧٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المكتب التجارى

للطباعة والتوزيع والنشر

cat. Feb. 19: 54

للمؤلف



- ١ - الحب والجمال
- ٢ - احاديث الامسيات
- ٣ - على مسرح الحياة الجزء الاول
- ٤ - مصرع العدالة تحت الطبع
- ٥ - مراحل النثر القديم جاهز للطبع



رسم المؤلف

اهداء الكتاب

الى قيس النور . . .

الى عروس شعري وموسيقى حياتي ، الى انشودة حبي ومصدر
الى سعادي ، الى من هي ارق من بدر السماء محاسناً ، الى من
صفحة المرأة كوجهها صفاءً وتلاؤلاً ، الى من يندلع السحر من
حياها المبارك ، ويعمر الحب الطاهر قلبها المقدس الى معدن
الجمال وموئل القدسية ، الى ام الفضائل الانسانية الى ذلك
الينبوع الصافي والمنهل العذب الى من هي انقى من قضيب اللجين
وأسمى من كل انسان الى من يزخر صدرها بالايمان الراسخ
والعقيدة التي لا تتزعزع الى مأوى الحب ومصدر العطف والخنان
الى من تتجلى في شخصها اسمى المثل العليا واخصال النبيلة ،
الى نبراس النور الذي يستضاء به في الأولى والآخرة الى من جنة
الفردوس تحت قدميها ، الى من ذلت لي الصعوبات ووقتي شر
الخطوب المدهنة ، الى من ، من اجلى عانت اشد الآلام وقاست
امر العذاب ، الى من صحبتني مراراً في الذهاب والاياب ، من
الكتاب الى البيت ، الى من اثارت لي السبيل وارضعتني مزية
الاعتماد على النفس ، الى من ولدت في صدري الطموح ، وغرست
في نفسي الأباء والشهم ، الى من عودتني الصدق والصرامة
وكثيراً ما رددت على مسامعي «ان خير صديق في الزمان
الكتاب» الى من هي اشهى من ماء الورد ، واحلى من رحيق

الكأس واطيب من عبير المسك الى تلك الزهرة الفواحة التي
عطرت بحياي باريجها، الى من جرعتني الامل بعد اليأس الى من
روحها روحي وروحي روحها الى بلسم جراحي ومهبط وحي
ودنيا هيامي الى زهرة شبابي وفكرة رأسي وقوة ساعدي
وخلجات فؤادي الى من انا فلذة من كبدها ونفحة من عطرها .

أنت لي وانا لك وكلانا لبعض فانت الروح وأنا الجسد ، وانت
النبض وأنا الجنان الى مرشدتي الى الحق ومنقذتي من الضلال الى
المدرسة الاولى والمعلم الافضل الى ملاك الرحمة ورسول السلام .

الى من حملتني بين احشائها جنيناً وعلى ذراعيها ولينداً وبين
احضانها طفلاً الى من لن انساها مدى الحياة وعلى مر الدهور
الى امي الرؤوم .

فلذة كبدك البار

المؤلف

ذو الحجة ١٣٧٢ آب ١٩٥٣

مقدمة الكتاب

أيها القاريء الكريم :

ليست قصة تاريخ حياتي قصة (على مسرح الحياة) من محض الخيال ولكنها من صميم الحقيقة املاها علي الزمان . وسطرها الي الانسان . فكتبته في سجل الحياة بؤساً . وشقاء . وقنوطاً من بني الانسان . وتبرماً بالزمان المتقلب الذي اضطرني الى مداراة اللثام وارغمني على مجازاة الاشرار في ما يقترفون من شرور . وما يرتكبون من آثام وما يأتون من ضروب الفجور والعصيان .

كتبته بعد ان اذاقتني الحياة صنوفاً من الآلام وضروباً من العذاب وبعد ان عضي الدهر بنيابه العطبة وخيم على هامتي كل كل البؤس والشقاء .

تأثرت وهاجت اشجائي ، وتحركت اوتار قلبي وثارت عواطفي حين سمعت انين المساكين في سكون الليل البهيم . فتألمت وبكيت وكتبت قصتي بدموع العين الغزيرة ودم القلب القاني . وخطتها براعتي سطوراً تطرب لها النفوس الحزينة وتنتعش لها الارواح الشجية صهرت فيها روعي الرقيقة الكئيبة . ونفسي المتألمة الحزينة وضعت فيها مشاعري واحساساتي وعواطفي الرقيقة كتبته وانا التخط على مسرح الحياة خبط عشواء بين البؤس والشقاء . والآلام والعذاب . نظرت الى الوجود من

خلال الانهاية فعرفت معنى الوجود وبعد ترو قليل ونظر صائب
حكيم ادركت سر الخلود والانهاية واعاجيب الكون واسرار
الحياة - عانيت آلام البؤس والشقاء الشديدة المريرة ورأيت
دموع البائسات والبائسين وسمعت انين المحرومات والمحومين .
وشعرت بالآلام التي تعانيها النفوس المعذبة والقلوب الحزينة
والارواح التعيسة . وسمعت تنهدات وزفرات العشاق والعاشقات
وتأوهات المظلومين والمظلومات فهلاني ما رأيته وحطمت قلبي ما
سمعته ولمسته فكتبت قصة تاريخ حياتي .

قصة « على مسرح الحياة »

كتبت قصة تاريخ حياتي من توجعات الأثير وحفيف
الأغصان . وخرير المياه ودغدغة النسيم وأغاريد البلابل الخدلة
وزقزقة العصافير الطروبة ، اظلمت الدنيا في وجهي ، وانصبت علي
الغصص وتوالى علي الكوارث فاطعمتني من غسلين . وسقتني من
الحميم واذاقتني مر العلقم وهول الجحيم . مثلتها علي مسرح
الحياة برباطة جأش ، وطول صبر وجلد ، وامنطيت سفينة الحياة
وسرت الى حيث لا أدري فنهلت من اليسر قليلا ومن العسر
كثيرا ، وحظيت بالسعادة حيناً وبالتعاسة احيانا ، واغترفت من
نمير الافراح فترة . ومن نمير الاتراح فترات . رضخت الى
تصرفات الدهر وتقلبات الايام فتألمت ، وكتبت قصتي بالالم
وبكيت فكتبتها بالدموع ويشت فسطرتها بالأس والملل .
تلبدت غيوم جو حياتي ، فأظلم الكون في وجهي وسئمت الحياة

كتبتها من النور الساطع بعد الظلام الخالك ، ومن الرقيق الحلو
والشهد العذب بعد الحميم ، والعلقم المر والجسيم المستعر . كتبتها
من الايمان الوطيد ، والعزم الشديد والطموح الذي يتأجج في
صدري ومزية الاعتماد على النفس التي بدلت اليأس رجاء ، والجسيم
نعيا والمحال يقينا . والانهازم نصراً مبيناً ، كتبتها من الحياة بعد
الموت ومن الامل بعد القنوط ومن البروغ بعد الافول ومن
الوجود بعد العدم .

المؤلف

ذو الحجة ١٣٧٢

آب ١٩٥٣

الفصل الاول

اليوم المجهول

كان صاحبنا ولا يزال مجهل موقع يوم ميلاده من الشهر والسنة إنه لا يذكر ذلك اليوم المجهول الذي قذف به فيه القضاء والقدر الى هذه الدنيا . انه لا يذكر ذلك اليوم المشؤم الذي ظهر فيه لأول مرة على مسرح الحياة ليقوم بتمثيل دوره مع زمرة الممثلين . في ذلك اليوم ظهر صاحبنا على مسرح الحياة ، وفي ذلك الشهر بدأ حياته الجديدة وفي تلك السنة اخذ يعد العدة لتمثيل دوره ولمنافسة اقرانه الذين يقومون بتمثيل ادوارهم المختلفة بكل ما اوتوه من قوة ونشاط . سار صاحبنا مع تيار الحياة الجارف ورضخ الى قضاء الله وتصرفات الدهر . وانطلق يكسب ويكسح على مسرح الحياة بصحبة اولئك الممثلين . فرأى منهم الممثل الذي اسعده الحظ واصابه التوفيق فلبس الشفوف وأكل ما تشبهه الانفس وتذلرويته العيون ، وقطن القصور الفخمة المؤثثة باجمل الاثاث والرياش وفيها من كل كماليات الحياة . ورأى منهم الممثل الذي لم يسعده الحظ كثيراً ولم يصبه من التوفيق ما اصاب غيره فعانى شدة العسر وحظي برفاهية اليسر وتمتع بلذة الافراح وقاسى الآلام والاتراح وانكأ مرة ونهض اخرى ونهل من منبلي السعادة والشقاء . ورأى منهم الممثل الذي لم يصبه من الحظ والتوفيق شيئاً ، بل اصابه من الكرب والشدة

والضنك والضيق الشيء الكثير فارتدى اخشن الملابس اذا
وجدها وقطن الكوخ الحقيقير في اوقات الحر والكهف المظلم في
ايام البرد والزمهرير. رأى صاحبنا هذا الممثل التعس الذي يعود
من عمله بعد الغسق ليبيع نفسه من عتاء النهار فيضطجع على
فراشه البسيط ولكن الكرى لا يزور عينيه وعيني زوجته
الارقه من شدة البرد والطوى ، ومن شدة الالم الذي يحز في
نفسه ونفس زوجته عندما يسمعان انين بينهما وتلفهم
على كسرة خبز وكوب حساء وغطاء يقيهم غائلة
البرد الشديد ، ويدعو صاحبنا يوم ميلاده تارة
اليوم المجهول لانه يحمله وقد اعيتته معرفة ذلك اليوم ويدعوه تارة
اخرى اليوم المشؤوم لانه اليوم الذي أتى فيه الى هذه الحياة مرغماً
وهو لا يود المجيء اليها ، والظهور على مسرحها لان الشرور
والرذائل متأصلة في نفوس بمثلها فمنهم الاناني المحتال الذي فطرت
نفسه على الحُبث واللؤم ومعظم هؤلاء من الطبقة المثقفة . ومنهم
المتواضع الفاضل الذي طبعت نفسه على حب الخير والانسانية
وطيب الطوية ونبل الحُصَال ومن الاحتكاك بأولئك ومعاشرة
هؤلاء أدرك صاحبنا ان العلم يزيد النفوس الشريرة شراً وخبثاً
ويزيد النفوس الطيبة طيباً وصلاحاً. وكذلك ام صاحبنا لا تذكر
ذلك اليوم السعيد لانها تمتعت فيه بلذة الأمومة تلك اللذة التي
كانت تصبو اليها نفسها منذ نعومة اظفارها . ولا يذكر والد
صاحبنا ذلك اليوم ، اليوم الذي يدعوه يوم البهجة والسرور وهو

اليوم الذي تمتع فيه بلذة الابوة التي كان يرنو اليها بفارغ الصبر
 منذ حداثة سنه وهذا اليوم كما يقول والد صاحبنا كان اسعد يوم
 في حياته . وكان صاحبنا كثيرا ما يسأل امه عن ذلك اليوم . لان
 أمهات اترابه في المدرسة يقمن الولاثم والاحتفالات ويتحفن
 بنهن بالهدايا والهبات في ذلك اليوم وهو الوحيد من بينهم الذي
 لا يعلم متى ولد ولا يتحفه والده بهدايا ذلك اليوم ولا يقيمون له
 الولاثم وحفلات الشاي كسائر زملائه . كانت ام صاحبنا تحببه
 بعطف وحنان وتقول له لاذكر ذلك اليوم يا بني وكل ما أذكركه
 ان الله من علينا ورزقنا اياك بعد زواجي من ابيك بثلاثة أعوام
 فيردد صاحبنا على مسامع امه هذا السؤال ويعاتبها لانها لم تسجل
 اسمه وتاريخ ميلاده في سجلات ادارة الصحة والاحصاء فتقول له
 امه اعلم يا بني انني وضعتك في العام الثالث الذي مر على زواجي
 من ابيك وقد جاءني المخاض في يوم من أيام الشتاء الباردة واما
 لم لم يسجل اسمك وتاريخ ميلادك في سجلات ادارة الصحة
 والاحصاء فهذا شيء مسؤول عنه والدك ووجهاء القرية ولا سيما
 المختار . فأعيا صاحبنا السؤال عن ذلك اليوم ولم يتوصل الى ما
 كانت تصبو اليه نفسه ومنذ بضع سنوات ولما عاد والده من
 رحلة قام بها الى بيت المقدس ليؤدي صلاة الجمعة في المسجد الأقصى
 في شهر رمضان المبارك عانقه وطبع الوالد على جبين فلذة كبده
 قبلة بريئة وما هي الا ثوان حتى بادر صاحبنا وسأل والده متى
 تزوجت من امي يا ابي فعجب الوالد من هذا السؤال وقبّله

كثيراً ثم قال لصاحبنا كان ذلك العام الذي اندلعت فيه
 نيران الثورة بيننا وبين اعدائنا اليهود وانصارهم الانجليز . وما
 كاد الاب يفرغ من كلامه حتى بادره صاحبنا بقوله : هل تذكر
 يا ابي يوم ميلادي فقال له الوالد لا اذكر ذلك اليوم يا بني
 ولكنني سأبحث عنه في سجلات الحكومة وعشراً حاول والد
 صاحبنا العثور على ذلك اليوم ولم يجده البحث عنه فتيلاً .
 ولما كان صاحبنا على وشك الانتهاء من السنة الدراسية الابتدائية
 الرابعة املى على زملائه الشيخ صادق شيخ كتاب القرية قصيدة
 عنوانها « المدرسة لامير الشعراء احمد شوقي بك » وفي هذه
 الاثناء كان صاحبنا مرهفاً اذنيه لاستماع ما كان يمليه الشيخ
 ومصغياً الى ما كان ينطق به شيخ الكتاب من شعر ونثر وكانت
 السطور الاولى التي املاها الشيخ على مسامع تلامذته تتضمن
 موجز ترجمة امير الشعراء احمد شوقي بك بدأها الشيخ بتحديد
 تاريخ وفاته . وما كاد الشيخ صادق ينتهي من املاء القصيدة حتى
 تذكر صاحبنا ما كان يردده على مسامع والديه من اسئلة
 لمعرفة تاريخ ولادته فاشرباب للكلام . وسأل الشيخ متى كانت
 الثورة ملتبة بيننا وبين اليهود . فسر شيخ الكتاب من هذا
 السؤال واعجب بصاحبنا وربت على كتفه واثنى عليه وقال
 له : كان ذلك العام يا بني عام تسعة وعشرين وتسماية والف
 وهو العام الذي طهرت مدينة خليل الرحمن من اولئك المكرة
 الخبثاء . ومنذ ذلك الحين لم تطأ ارضها قدم يهودي واستطرد

الشيخ في كلامه عن اليهودية واخذ يقص على مسامع تلاميذه
 تاريخ اليهود المقعم بالخدع والمكر للأسلام والعرب فقال صاحبنا
 للشيخ صادق شيخ كتاب القرية « اليس الله الذي خلق السموات
 والأرض وجميع الكائنات وأسبغ نعمه على المجموعة البشرية دونها
 تمييز » فقال الشيخ باستغراب « بلى » فرد عليه صاحبنا قائلاً :
 اذا كان الامر كذلك فلماذا نضمر البغضاء نحن العرب ونكن
 الضغينة والعداوة للإنكليز واليهود ونشن عليهم الثورات الدامية
 فيذهب ضحيتها الشباب الابرياء منا ومنهم فقاطع الشيخ صاحبنا
 وقال : « انت يا بني لا تزال حديث السن ولا تفقه من امور
 الدنيا شيئاً ، واني انصحك ان تقرأ قصة تاجر البندقية للكاتب وليم
 شكسبير لترى بنفسك شناعة الحُبث اليهودي . ثم قال : « اعلم
 يا بني ان فلسطين وطننا ووطن أجدادنا ، وليس
 لهؤلاء اليهود وطن معروف لانهم شعب من الشعوب المغضوب عليها
 في الدارين فقال صاحبنا « اذا كان لا يوجد لليهود وطناً فأين يذهبون
 اذا اخرجناهم من بلادنا ؟ واذا اخرجناهم منها ذهبوا الى بلاد غيرها
 فيخرجهم اهلها منها مرة اخرى . ان الله تعالى أقر بالعدالة ، فهو
 عز وجل لم يخص لامة من الامم وطناً خاصاً فبلاد العرب ليست
 حراماً على الهنود والانجليز ولا على اليهود ولا على الزنوج وليست
 الهنود مقصورة على الهنود انفسهم بل هي كسائر اقطار الارض ووطن
 الكل انسان » فاغتاظ الشيخ واشتد حنقه وقال : « الست يا صبي

من ابناء الاسلام ، فانه تعالى امرنا بالجهاد في سبيله لترفع كلمة
 الاسلام عالياً ويحق لنا ان نحارب هؤلاء اليهود حتى يثوبوا الى
 رشدهم ويعتقوا الاسلام من اراد منهم . فمن لا دين له لا وطن
 له ومن لا وطن له لا دين له وحب الوطن فريضة على كل مواطن
 واطن يا صبي ان لا وطن لك ولا دين لك ، وستكون جرثومة
 في بنيان الاسلام والعروبة اذا قدر لك ان تعمّر لا سمح الله ،
 فقاطع صاحبنا الشيخ وقال اليس المسلمون والنصارى واليهود
 ابناء آدم وحواء ، قال الشيخ « بلى » ثم قال صاحبنا « اليس
 الله الذي انزل الزبور والتوراة والانجيل والقرآن الكريم
 قال الشيخ بلى فانهز هذه الفرصة صاحبنا وقال : « اذن فلم
 هذا الخلاف ولم هذا التمييز ولم هذا النزاع الدائم بين بني الانسان
 فقال الشيخ : هذه يا زنديق سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله
 تبديلاً . ان الله تعالى انزل الزبور ثم انزل التوراة ففسخت الزبور
 ثم انزل الانجيل ففسخ التوراة ثم انزل القرآن الكريم ففسخ
 الانجيل وجاء بالاسلام ولن يكون بعهد الاسلام دين فسأل
 صاحبنا الشيخ وقال كيف يتفق والعدالة الالهية ما نراه من
 تفاوت بين بني آدم » فقال الشيخ وهو يغلي كالمرجل من الغضب
 انه جلت قدرته وسمت حكمته لا يسأل عما يفعل ولا تخطر هذه
 الحواطر الا للملحدن الجاحدين » فتأثر صاحبنا من هذه الالفة
 القاسية التي خاطبه الشيخ بها وقال : انك تعلم يا سيدنا الشيخ
 ان الانسانية المعذبة في حاجة الى الاصلاح والطمأنينة وارى ان

نأخذ كل ما هو خير وصالح وما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
من الكتب المنزلة الاربعة فنحسم الخلاف ويسود الارض السلام
اذا ما سار الناس بمقتضاه وعملوا بموجبه » فاهتز الشيخ صادق من
قمة رأسه الى اخمص قدميه وهاج وازبد وارعد وقال لصاحبنا
انك ملحد يا صبي ولا غرابة في ذلك فسلفك ابو العلاء المعري
كان ملحدا وبشار بن برد كان زنديقا ، فكأن الله عز وجل
عرف ما في نفوسكم ايها العميان فانزل بكم في الدنيا اشد
العقاب اذ حرمتكم نعمة البصر وهو اعلم بما سينزل بكم من
عذاب يوم الحشر وقد قال الرسول الكريم : كل ذو عاهة
جبار » فرد عليه صاحبنا وقال : ان ذا العاهة جبار في تحمل
اعباء ما نزل به من مكروه وليس متعجرفا كما تعني يا سيدي
الشيخ » ولكن شيخ الكتاب قاطع صاحبنا وقال :
ان مثلك مثل العنزة الجرباء بين القطيع ومن واجبي كراخ
لهذا القطيع ان اخرجك من حظيرة الكتاب كي لا يتسرب الوباء
منك الى سائر القطيع » .

وفي ذلك اليوم وجد صاحبنا ضالته المنشودة وادرك انه ولد
في يوم من ايام شتاء سنة احدى وثلاثين وتسعمائة و الف . ومنذ
ذاك الحين عرف صاحبنا العام الذي اتى فيه الى هذه الدنيا ولكنه
لا يزال يحجل ذلك اليوم ولا يزال لا يذكر ذلك الشهر وموقعه
من العام الذي خرج فيه صاحبنا من النعيم المقيم الى الجحيم
المستعر الذي اصلاه نار احامية لا تطاق ولا يتحملها الا ذوو الصبر

والجلد الذين تزخر صدورهم بالعزيمة الصادقة والارادة التي لا
تذعن الى الصعاب مهما كان نوعها ومهما كانت شديدة بل تثبت
امام الكوارث ونجابه الشدائد بكل ما أوتيت من قوة وبأس
وتقارع الخطوب املا منها بالفوز في الاولى او الاخرى وإيماناً
منها بما ورد في كتاب الله العزيز من آي الذكر الحكيم : « ان
الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »
« وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » « يا ايها
الذين آمنوا اصبروا وصابروا » « فاصبر صبراً جميلاً » .

ومنذ ذلك العام وطوال السنوات الست الاولى من حياة
صاحبنا صفا له الجو وافترت له الدنيا عن ابتسامة بريئة من ثغرها
الفتان فتمتع نفسه بنورها الوضاء وبجمال مناظرها الخلابة ورفل
في حلل السرور والهناء في عهد لن ينساه مدى الحياة . انه لن
ينسى ذلك العهد الذي تمتع فيه بالرغد والسعادة ان هذا العهد هو
اسعد اوقات حياته ، وكيف لا وهو عهد الطفولة البريئة وينبوع
النشوة والحبور وما كاد صاحبنا يتجاوز السادسة من سنه حتى
اكفهر جو حياته واحتبكت غيومه وانقلب الى مظلة حالكة
السواد فقصفت الرعود وهبت الانواء وتكاثفت السحب وعبست
الحياة لصاحبنا فداهمته الدم واستحال فجر حياته الى غروب
طويل وتبدل نهاره المنير ليلاً دامساً .

الفصل الثاني

البصر المفقود

ما كاد صاحبنا يتجاوز الخامسة من عمره ويمشي نحو السادسة حتى أصيب بوبأ الجدري الذي أصاب جميع أطفال قريته « قرية صوريث » فمنهم من عاجلته المنون ، فاستراح من غناء الحياة وآلام هذه الدنيا الدنيئة ومنهم من تشوهت خلقته وترقش بحياه وعلة حفر واخاديد صغيرة قبيحة ، فصار أعجوبة في نظر من سلم من هذا الداء ، وغدا عرضة لتهمهم وحديثاً لسخريتهم ، ومبعثاً لهزئهم ، ومنهم اودى من الاطباء بحياتهم ، باذن من الحكومة لكي لا ينتقل المرض من المرضى الى الأصحاء فينتشر في طول البلاد وعرضها ويعم بكل كلفة جميع أحداثها فيفدح الخطب وتعظم المصيبة. هذا ما اصاب القسم الاعظم من اتراب صاحبنا من جراء هذا المرض الخبيث . واما صاحبنا نفسه فقد شاء القدر الا يستل هذا المرض منه الحياة والا يستله منها وأبى ان يشوه خلقته ويرقش بحياه . ولم يتمكن الاطباء كذلك من القضاء على حياة صاحبنا ، لان امه الرؤوم أبت ان تعرضه عليهم للمعالجة ولم ترسله الى مستشفيات العيون ضناً منها على حياة فلذة كبدها الوحيد

وبكرها الصغير الذي كان عندها اعز شيء في الوجود بل كل شيء فيه . ولكن ام صاحبنا الساذجة اكتفت بالاعتناء على الصفات العربية في معالجة عيني طفلها ، وبتمتة جارتها المشعوذة « الشيخة محبوبة » التي كانت تقضي الساعات الطوال وهي تتمتم وتخرج على رأس صاحبنا . وتحرق البخور بجانبه ، وهي تتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، وتستنجد بالرسول الكرام . وبأولياء الله الصالحين المقربين . ولكن تلك الصفات والتمتات والاستنجات لم تأت بفائدة ولم تجد نفعا ، بل ذهبت هباء منثورا . وأبى هذا الوباء الشنيع الا ان يسلب صاحبنا اعز شيء في الحياة . واغلى حاسة وهبها الخالق اياه تلك الحاسة التي يميز بواسطتها الجميل من القبيح ، وبها يتمتع نفسه بجمال هذا الكون العجيب وبروعة مناظر الطبيعة الخلابة وبها يشق طريقه الى حيث يشاء وانى يريد؛ ويفرق بين ظلمات الليل البهيم ، وانوار النهار الساطعة . فعبست الدنيا في وجهه . وكشرت له عن أنيابها العظيمة وتكشفت له عن عدو في ثياب صديق ، فكفت يسري عينيه في أوائل شتاء ست وثلاثين وتسعمائة وألف ، فريعت ام صاحبنا لشدة هول ما حل بها وتحطم قلبها وخارت قواها من حدة الأسى والآلام واخذت تندب حظها وحظ طفلها وكانت لا تجد لها سلوى الا البكاء والنحيب ، حتى ضعفت ونجل جسمها ، واصبحت شجأ شاحب اللون ، مجعد الحيا ، كسيرة القلب والنفس وكثيرا ما كانت تحمل كميات الشمع والزيت وتذهب بنفسها الى مقام الشيخ حسين القائم في وسط قريتها « قرية صوريث » فتضيء الشمع وسراج الزيت

بيدها . وتقول « يا شيخ حسين يا مبارك رحمك الله وطيب ثراك
انت من اولياء الله ومن المقربين اليه اني اتوسل اليك ان ترحمي
وتعطف علي وعلى ولدي وان تطلب لابني الشفاء من ربك الرحيم
وبعد هذه الأدعية والتوسلات كانت ام صاحبنا تغادر مقام الشيخ
حسين بنفس حزينة وقلب كسير واملها في الشفاء كبير ، وعيناها
مغروقتان بالدموع ، قاصدة مقام الشيخ محمد الهدمي تستجد به
وتدعوه لشد أزرها وللأخذ بيدها ، وتطلب منه ما طلبته من
الشيخ حسين ثم تعود الى بيتها وتطبع على جبين ابنها صاحبنا قبلة
الامومة البريئة واملها كبير في شفاؤه .

كانت ام صاحبنا من النساء المتدينات ، تؤدي الصلوات
الخمس في اوقاتها وكانت تفتح يديها وترفعها نحو السماء في آخر كل
صلاة مبتهلة الى الله تعالى قائلة : « لك ربنا العظمة والكبرياء ،
تباركت وتعاليت وجلت قدرتك وعظم شأنك وسمت حكمتك
اللهم انك مبعث القدرة والعظمة والكرم والاحسان والعطف
والحنان ، فارأف بي واشفق علي وارفق بجلياتي وخلص فلذة
كبدتي من هذا الخطر الجسيم ، وفه جميع الاشرار . اللهم انك
تعلم ان هذا الطفل اذاقني الامرين وأراني الاهوال والشدائد
وأنصب جسدي وأتعب ذراعي وحرمني لذة النوم وجعلني فريسة
للأفكار والهواجس . اللهم انك تعلم انني حملته بين احشائي جنباً
تسعة أشهر كنت اثناءها خائفة القوى متعبة النفس والجسد انتظر
بفارغ الصبر اليوم الذي سأضع فيه هذا الحمل واستقبل مولوداً

كثيراً ما تمنيت وجوده وأنتك جات قد درتك تعلم انه بكري
وانه فلذة كبدي وهو وحيدتي وعزيز علي ومحبي الي . اللهم انك
تعلم انني وضعت في يوم قارس البرد شديد الانواء والزمهرير وانني
كنت أثناء فترة الحماض وبعدها اصارع قوتين عظيمتين ، قوة الموت
وقوة الحياة واغالب الحواطر التي كانت تخيم علي هامتي فتندرنني
تارة بموت ولدي وتارة بموتي ، واخرى بموتنا الاثنين معاً . اللهم
اني اضرع الي عزتك وجلالك بولاء وخشوع راجية ان تنقذ
ولدي من شر هذا الداء العضال ، وان تحميه من عيون الحساد
والحقاد الذين اذا اصاب غيرهم خير وفرح ، كان عليهم شراً وترحاً
واذا اصابهم شر وحل بهم مكروه تمنوا ان يصيب غيرهم ما حل
بهم . اللهم احفظ هذا الطفل البري من كل شر وابقه سليماً من كل
آفة ليكون سنداً لي ولابيه الذي عانى من اجله بعض ما عانيت
وسهر علي راحته وتربيته مثلاً سهرت ، وليكون ذخراً لوطنه
وفخراً لامته . انك سميع مجيب . كانت شعوذات الشیخة «محبوبة»
ومتقاتها وشفاعات الشیخ حسين والشیخ محمد الهدمي هباء منثوراً
تذروه الريح . وكانت ابواب السماء مغلقة امام توسلات ام
صاحبنا وادعيتها . وأبى القضاء الا ان ينقذ مشيئته . فكفت يمني
صاحبنا في اواخر الربيع عام ست وثلاثين وتسعماية والـ ألف ميلادية
ذلك العام الذي كانت الاحوال فيه في اضطراب شديد مستمر في
الديار المقدسة واعلن فيه عرب فلسطين ثورتهم المشهورة علي
السلطات الانجليزية المنتدبة واليهود الدخلاء واضراهم الشهير الذي
امتد ستة اشهر ونيف ، وهو اطول واشهر اضراب عرف في تاريخ

فلسطين السياسي . وكان والد صاحبنا يعتقد ان الاسباب التي ساعدت وباء الجدري على الذهاب ببصر ولده : اهمال ام صاحبنا واتكائها على الخرافات والشعوذات وتمنعها عن عرض ولدها على الاطباء لمعالجته بالاساليب الطبية الحديثة . ولكن ام صاحبنا لا تقر هذا كله ولا تؤمن به بل تعزو اسباب عمى طفلها الى اشياء غير معقولة وليست من الواقع في شيء وهي ان عينا اصابت صاحبنا عندما ذهب في احد الايام مع ابيه الى المضافة واخذ يملأ جيبه بالسكر الذي كان موضوعاً امام الضيوف ، فقال احد الضيوف : دع يا حيي السكر ، وانصرف الى امك ، فرد عليه صاحبنا وقال : ليس السكر من بيت ابيك ولكنه من بيت ابي . ففقهه الحاضرون كثيراً وسروا من سرعة خاطر هذا الصبي وبشروا والده بمستقبله الزاهر ، وكان من ذوي الوجاهة والجاه والثراء وكذلك كانت زوجته . الا ان تينك الثروتين ذهبتا نتيجة لتبذير والد صاحبنا واسرافه .

الفصل الثالث

الطفل الضير

كان صاحبنا يرى نفسه سجيناً مقيداً بسلاسل من حديد ، ويشعر انه عبد مهان . وكان قلبه على وشك الانفجار من شدة الغيظ والالم اللذين الما به على اثر فقدانه لبصره ، وغور يسرى عينه في رأسه . وكان من بواغث النقمة في نفسه وايغار صدره على امه وابيه واهل بيته ، ان حرمت امه الحنون عليه الخروج من عقر

دارها اشفاقاً منها عليه . وحرصاً على سلامته ولكن صاحبنا كان لا يجد له سلوى وهو قابع بين جدران سجنه .

الا شتم امه ورميها بالحجارة اذا وجدها في ساحة الدار . وكان يبطرها بوابل من قطع الخشب التي كانت معدة للوقود ، اذا سعى وراء الحجارة ولم يعثر عليها . وكانت ام صاحبنا الكثيبة تتحمل كل تلك الشتائم وتلك الضربات بصبر وجلد يمازجهما ألم وأسى . وفي كل حين كانت ام صاحبنا تضمه الى صدرها بعطف وبشاشة وتطبع على محياه قبلة الامومة البريئة وتردعه عن رميها بالحجارة وقطع الخشب ، وتنهاه عن شتمها وعن استعمال تلك الالفاظ البذيئة التي كان يفوه بها في اغلب اوقاته ، ويقذف بها في وجهه كل فرد من افراد الاسرة ، يرفق ولين . وكانت تقول والالم يحز في نفسها والاسى يقطر من فؤادها والدموع تتناثر على خديها : « سأرسلك يا بني في صبيحة الغد مع والدك الى بيت خالك لتلعب وتلهو مع ابنائه . فيأتي الغد ويمسك والد صاحبنا بيد ابنه ويسير رويدا قاصداً بيت خال صاحبنا فيتركه هناك . وينصرف الى عمله بعد ان يوصي اتراب صاحبنا به . وان يتوسل اليهم بنفس كسيوة وقلب حزين الا يؤذوا هذا الطفل الضريع ، والا يأتوا بما يغضبه ويمس شعوره واحساسه . وعند الظهر كان والد صاحبنا يعود الى بيت صهره ويفتح ذراعيه ثم يضم الى صدره بعطف وحنان طفله الضريع وينثر على محياه قبلاته الحارة التي كان يشوبها اليأس والالم . ثم يحمل

طفله على كتفيه وينصرف مودعاً أبناء صهره شاكرًا لهم حسن
 معاملتهم لابنه الذي كان حبه له حباً يقرب من العبادة. وفي أثناء
 الطريق كان والد صاحبنا يسأله عن كيفية معاملة أترابه له، ويقول
 له أتمنى يا ولدي أن تكون قد متعت نفسك بقسط وافر من
 الراحة والسرور والابتهاج « فيقول صاحبنا لا يبه المحزون
 ليتك يا أبي لم ترسلني إلى دار خالي لالعب والهو مع ابنائه. وأبناء
 جيرانه القساء للثام . ولما سمع والد صاحبنا هذه العبارة القاسية
 الصادرة عن قلب كسير ونفس حزينة قال لولده والدموع تنحدر
 من مقلتيه كأنحدار السيل المنهمر من أعلى القمم إلى اعماق الاودية
 « قل لي يا ولدي عما لاقيته منهم من ضروب الاذى والسخرية
 والاستهزاء » : « فيجيب صاحبنا اباه بلهجة تقشعر لها الابدان
 وتلين من وقعها الصخور : « بعد أن غادرتني بين هؤلاء الاوغاد
 اخذوا يرموني بالحجارة الكبيرة ، ويقولون سر من هنا يا اعمى
 فليس امامك شيء ، فالطريق امامك ممهدة وليس فيها ما يعرقل
 سيرك . وكنت اسمع قولهم واصدق زعمهم واتابع سيوري رويداً
 رويداً حتى اصطدم بالحجارة التي كانت موضوعة لي في الطريق
 فتنهشم رجلي وتسيل منها الدماء ، وتهطل من مقلتي الدموع التي
 كنت اشعر أثناء تساقطها على خذي بنار ملتبهة غشيت وجهي
 واحرقت بعض اجزائه . وكنت بعد ذلك استجمع قواي وانفض
 من كبوتي لاتابع سيوري ظنناً مني انه ليس هنالك ما يعترض
 طريقي أثناء اياي إلى البيت الذي لم اكن ادري أي الطرق التي

تؤدي اليه تخلصاً من هؤلاء الانذال ، الذين كانوا يتغنون في
اهانتى واذيتى ولو كنت عزرائيل لاستلكت ارواحهم من اجسادهم
في اقل من لحظة وقبل ان يرتد طرفي الى . وبعد بضع خطوات
كنت اسقط في حفر كثيرة كانت قد حفرت في منتصف الطريق
فيعلوني الغبار ويكسو شعر رأسي التراب وتعلق بملابسي الاقدار
والاوهال التي كانت ماثلة على جوانب الحفر وفي قعرها .

وبينا انا على هذه الحال كان يهرول نحوي صبية الحميم ويسنادي
بعضهم بعضاً تعالوا وانظروا هذا الاعمى المسكين الذي يتدحرج
على قارعة الطريق . وكان ضجيجهم وصراخهم يعيد الى نفسي
بعض الثقة في انسانية البشر ويخفف من نقمتي عليهم ظناً مني ان
هؤلاء الصبية سيدون الى يد المعونة وينهضوني من عثرتي
ويرشدوني الى طريقي . ولكن سرعان ما كانت تزداد نقمتي على
بني الانسان ، ويتبدل ظني في صلاح وانسانية صبية قريتي والبشرية
جمعا لان هؤلاء الصبية الذين توسمت فيهم الخير والمعونة كانوا
يتسلون بالامعان فيما كانوا يصبونه علي من ضروب الاذى
والازدراء اذ كان احدهم يدفعني بقوة وعنف الى لرصيف اليمين
من الطريق فاستلقي على ظهري ثم انهض بتثاقل فيدفعني الآخر
بشدة وقساوة الى الجانب الايسر من الطريق ثم انهض وقد اعياني
التعب فيسدد الثالث الى صدري قبضته دوغماً شققه ولا رحمة
فاستلقي على ظهري ثم انهض واقف على قدمي وانا ائن من شدة
اللكمة ، فيبادر الرابع ويركلني من الخلف فاسقط على الارض

وتتخطم اضلاعي وتسيل من ذقني وشفاهي الدماء . ولو لا ان
قيض الله لى رجلا كهلا محدودب الظهر كان يتصبب عاطفة ورحمة
ففرق هؤلاء الصبية اللثام عني واقصاهم مني بعصاه التي كان يتوكأ
عليها لاودى أولئك الصبية بحياتي بركاتهم العنيفة ولكلماتهم
الشديدة .

ولما وصل والد صاحبنا وابنه العزيز الى المنزل كانت زوجته
في انتظارهما فاجتذبت صاحبنا وضمته الى صدرها وراحت تقبله
بحرارة وعطف قائلة له أتمنى ان تكون قد لاقيت ما سرك
وانعش روحك وخفف من مصابك برفقة ابناء خالك وصبية حيهم
يا ولدي . وما ان سمع صاحبنا تلك الكلمات التي كانت تنطق بها
امه ببطء وتلعثم حتى شرع يقص عليها ما لاقاه في ذلك اليوم من
هؤلاء الصبية الجهلة من ضروب التنكيل والسخرية والعذاب
واسترسل في سرد تفاصيل ما حدث له منذ خروجه من المنزل
حتى رجوعه اليه على مسامع امه المعذبة . فاعتوى ام صاحبنا
الصمت الرهيب وارتعشت كل عروقها واكفهر بحياها وامتنع
لونه وغشي عليها فسقطت على الارض كأن نازلة نزلت بها او
عارض طراً عليها او نوبة قلبية داهمتها . فارتعشت فرائص زوجها
المنكوب وكاد يغى عليه لو لا ما اوتيه من شدة الجلد والصبر على
مقارعة الخطوب والثبات امام المدهلمات ولكنه سرعان ما انتصب
على قدميه وأسعف زوجته المغى عليها وبعد فترة قصيرة افادت
ام صاحبنا المسكينة من غشيتها وقالت له لن تخرج بعد اليوم من

البيت يا بني فاجابها صاحبنا سوف اخرج على الرغم منك ومن كل من يحاول صدي عن الخروج ويجرؤ على الوقوف في وجهي .

وفي صبيحة اليوم التالي انتهر صاحبنا فرصة انشغال امه في جمع التين المجفف من المكان الذي كانت قد اعدته له على جانب البستان الذي كان لا يبعد عن المنزل الانحو أربعين متراً . فنهض من فراشه وارثدى ملابسه . ولما ايقن ان ليس في الدار من يراقبه ويمنعه من الخروج تسلل نحو الباب الذي كانت امه قد خرجت منه وسهيت ان تقفله وفتحه برشاقة ولطف حتى لا يشعر احد بخروجه ثم اغلقه بخفة وذهب ليتنزه مع صبية القرية الذين كانوا محتشدين على البيادر القائمة على هضبة في الزاوية الشرقية من القرية فلما اقترب من الصبية هرعوا اليه يرجونه بالحجارة ويدفعونه باكفهم وارجلهم فاغتاظ صاحبنا من معاملة الصبية له واشتد حنقه عليهم وعاد ادراجه الى المنزل وهو في ازمة نفسية غاضب على البشرية والحياة مضمرآ في نفسه الانتقام من اولئك الصبية الذين آلموه وساموه أسوأ العذاب واخذ يفكر في الوسيلة التي سينتقم من ابناء القرية بها فقاده افكاره القاسية الى ان يقرر بطن احدثهم حتى لا يجرؤ الآخرون على الاعتداء عليه واضمر صاحبنا على تنفيذ خطته واخذ يبحث عن خنجر ليقرر به بطن من يظفر به من اعدائه وبعد جهد جهيد عثر على صندوق خشبي مقفل فعالجه حتى تمكن من فتحه فوجد فيه خنجراً في غمده فوضعه في جيبه وعاد ادراجه الى البيادر حيث كان الصبية يرتعون ويمرحون فتصدى

له احدثهم ورماهم بجحر فاسال الدم من معصمه واقترب منه ليؤكله
فسارع صاحبنا الى الخنجر واستله من غمده وطعن به الصبي في
فخذيه ولكن قواه خافته فلم يجرأ على استلال الخنجر من ورك
عدوه ولو لا ان قيض الله له اناساً حملوا المصاب الى اهله وارجع
الآخرون صاحبنا الى منزله حيث كانت امه في انتظاره ونقلوا
اليها نبأ الجريمة التي ارتكبتها ابنها وقالوا لبت الذي ذهب ببصر
هذا الصبي الشرير يذهب بحياته فيريحك ويريح الناس من شره .
وكان لهذه العبارة الوقع الاليم في نفس ام صاحبنا ووقع نبأ
الجريمة موقع الصاعقة من قلبها فذعرت واستولى عليها الذهول
والصمت العميق .

ومنذ ذلك الحين صار صبية الحلي والقرية يهابون صاحبنا
ويخشون بأسه حتى ان الصبي الذي طعنه بخنجره تجنبه بعد ان كتم
جرحه ولم يثار منه .

الفصل الرابع

الى الكتاب

في صبيحة اليوم السادس عشر من شهر ايلول عام تسع
وثلاثين وتسع مائة والف امسك والد صاحبنا بيد ابنه الضير
وسارا ادراجهما الى الكتاب القائم على رابية في الناحية الغربية من
القرية . ولما وصلا الى الكتاب وجدا الشيخ صادق شيخ كتاب

القرية يلقي الدروس الدينية على سامع تلاميذه فانتظر والد
 صاحبنا خارج قاعة الدرس الى ان انتهى الشيخ من عمله وجلس
 ليستريح قليلا على مقعده فطرق والد صاحبنا الباب مستأذناً
 بالدخول فاذن له الشيخ ولما مثل والد صاحبنا بين يدي الشيخ حياه
 وصافحه وقبل يده قائلاً : يا سيدنا الشيخ حفظك الله لنا وابقاك
 واعزك في دنياك وأخرأك لقد جئت بهذا الطفل الضير الذي
 رزأني الله به وليس لي سواه لتعلمه القرآن الكريم والصلوات
 الخمس وفروضها وسننها ولتغرس في نفسه حب الخير والفضيلة
 والمزايا الخلقية الحسنة ولما فرغ الاب المحزون من كلامه قال له الشيخ
 ان ابنك اعمى وليس الكتاب معداً لتلقين العميان الدروس الدينية
 التي تنفعهم في الدارين ولا عمل لهم سواها ولا يصلحون الا لها
 ولكنها معدة لتلقين المبصرين العلوم الدينية وموضوعات اخرى
 كالرياضيات والطبيعات واللغة الانجليزية والتاريخ والجغرافيا
 ودروساً اخرى . وليس بأستطاعة ابنك الضير ان يستوعب هذه
 المواد ويجاري اخوانه المبصرين في الاعتراف من غيرها ويسير معهم
 في هذا كله فلا فائدة له منه ولكنني انصحك ان ترسله الى الازهر
 الشريف حيث توجد التربية الصالحة له ولأمثاله وحيث يعب من
 مناهل اصول الدين واحكام التشريع وصحيح الاحاديث النبوية
 الشريفة وتفسير القرآن الكريم ما يجعل منه شيخاً صالحاً ومشروعاً
 قادراً . ثم قال : وليست الكتاب كما كانت عليه سابقاً من فوضى
 واضطراب بل هي في تقدم مطرد وتحسن ملموس فهي الآن
 مدرسة رسمية تابعة لوزارة المعارف .

وبعد لأي وافق الشيخ على ان يلحق صاحبنا بالكتاب لا لوجه الله ولا اكراماً لآبيه الكتيب ولا عطفاً من شيخ الكتاب على صاحبنا ولكن حباً للمال الذي رشاه به والد صاحبنا . ومنذ ذلك الحين اصبح صاحبنا في عداد تلاميذ كتاب القرية المقربين من شيخها الشيخ صادق لان ام صاحبنا كانت تغدق عليه العطايا من زبد ودجاج وبيض .

كان صاحبنا يتعلم في كتاب القرية القرآن الكريم ومبادئ الدين واستطاع ان يسير مع اخوانه المبصرين وان يجاريهم في كل المواد التي كانت تدرس في الكتاب ما خلا القراءة والكتابة . وكان يختلف كل مساء الى بيت احد زملائه ليلقنه ما خصص له الشيخ من أي الذكر الحكيم وفروض الوضوء وسننه . ثم يعود الى منزله وهو يكرر ما حفظه من الآيات والسنن والفروض في نفسه لكي لا ينساه . وفي صبيحة كل يوم كان يذهب الى الكتاب بمجد ونشاط ويتلو على مسامع الشيخ صادق ما حفظه عن ظهر قلبه من القرآن الكريم ومبادئ الدين فيربت الشيخ على ظهره ويهنئه على ما وهبه الله من قوة الذاكرة والحس المرهف ، وكان تشجيع الشيخ لصاحبنا على متابعة دروسه الدينية ومدحه له لما لمس فيه من جد واجتهاد واغراء امه وابيه له بالهدايا وقطع النقود وحبه للعلم وطموحه الى العلى اقوى الدوافع التي حثته على العب من معين القرآن الكريم والنهل من ينبوع الدين العذب .

وكان صاحبنا قوي الارادة صلب العزيمة لا تثنيه عن مقاصده

واهدافه الكوارث العظيمة والنوائب الجسيمة . فسد الله منه
 الخطى واخذ يعترف من معين القرآن الكريم السورة تلو السورة
 والآية تلو الآية . واستطاع ان يستوعب من القرآن الكريم خلال
 العام الدراسي الاول من دخوله الكتاب الجزء الثلاثين من القرآن
 الكريم (عم) وان يستوعب خلال العام الدراسي الثاني من
 التحاقه بالكتاب من القرآن الجزء التاسع والعشرين (جزء تبارك)
 والثامن والعشرين « المجادلة » وفي اواخر العام الدراسي الرابع كان
 صاحبنا قد استوعب قسماً كبيراً من القرآن الكريم وختم
 سورة (يس) .

فسر والد صاحبنا كثيراً من الشيخ صادق وكان فرحه بنجاح
 ابنه لا يقدر فأولم وليمة ودعا اليها الشيخ صادقاً وسائر شيوخ
 القرية وبعد المهرج والمرج تناولوا الطعام وهناؤوا والد صاحبنا
 بالفوز الذي احرزته ولده . وبعد ان فرغوا من مسامرتهم
 واحاديثهم دعى الشيخ صادق صاحبنا وقال : « اقرأ لنا
 يا بني الآيات الاولى من سورة الاحقاف » فلم يفتح الله عليه بحرف
 وكل ما كان يتذكره صاحبنا ان سورة الاحقاف كانت تبدأ
 « حم » تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ثم قال الشيخ
 لصاحبنا اتل علينا ما تيسر من سورة الجاثية مبتدأ من اولها فلم
 يفتح الله عليه بحرف واطرق طويلاً وهو يتمم ويتأفف من الشيخ
 الذي اوقعه في هذا المأزق المخرج وفي هذا الامتحان الذي لم يحظر
 له على بال ولم يستعد له فاشأز الشيخ من صاحبنا وتجنح وتقهمل

ونظر اليه نظرة سخرية وازدراء ثم قال « اقرأ لنا الآيات الأولى من سورة الدخان » ففتح الله على صاحبنا بآية فقرأ وهو يرتجف (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) فرمى الشيخ وارعد قائلاً ليست هذه سورة الدخان يا لعين فقال صاحبنا للشيخ لقد حفظت يا سيدنا الشيخ أكثر من خمس سور كلها تبتدي بـ (حم) فرد عليه الشيخ قائلاً وهو يغلي كالمرجل « اتل علينا ما تذكره من أول سورة الشورى » وكان صاحبنا يذكر أن سورة الشورى تبتدي بـ حم فتلا الآية التي يذكرها وكانت لسوء حظه تلك الآية بداية سورة الزخرف لا بداية سورة الشورى فامتأ صدر الشيخ غضباً وحنقاً على صاحبنا الذي قضى أربع سنوات في حفظ القرآن ونسي ما حفظ خلال هذه الأربع سنوات بين عشية وضحاها . وقال له « اتل علينا ما تذكره من سورة الزمر » فلم يفتح الله عليه بحرف فامسك الشيخ بعصاه وقال لصاحبنا مهدداً آياه بالضرب « لقد حفظت سورة يس منذ أسبوعين واطن أنك لم تنسها فاتلها على مسامعنا » فقرأ صاحبنا « يس والقرآن الحكيم » ثم وقف لأنه كان قد نسي الآية التي تلي الآية التي قرأها فرفع الشيخ عصاه وانهاه بها على صاحبنا وهو يقول « وقف حمار الشيخ في العقبة » ولما رأى والد صاحبنا أن ابنه لم يحفظ شيئاً من القرآن الكريم أو أنه نسي ما قد حفظه فأضاع مدة ثمينة من حياته سدى . قال للشيخ ترك الصبي وشأنه وكف عن ضربه فضربك لا يعيد اليه ما نسيه من القرآن ولا يجديهِ نفعاً وفي اليوم التالي ذهب صاحبنا كعادته الى الكتاب ولما دخل قاعة

الدرس قال له الشيخ لا فائدة من مجيئك الى الكتاب يا بني
وانصحك ان تقبع في عقر دارك ان القرآن الشريف يا بني لا
يرسخ الا في صدور المؤمنين ولا تستطيع ان تحفظ منه شيئاً ولا
يمكن ان يثبت في ذاكرتك شيء لانك زنديق وملحد لا تقر
بالالوهية ولا تعتقد بيوم الحشر فقال صاحبنا ساراجع كل ما
حفظته من القرآن الكريم يا سيدنا الشيخ وساحفظه من جديد
فقال الشيخ لصاحبنا ساجري لك امتحاناً يا بني فان برهنت على
كفاءتك وجدارتك بمتابعة حفظ القرآن الكريم ومبايعة الدين
كنت من تلاميذ الكتاب الناجحين وبقيت في حظيرتنا ثم قال
لصاحبنا اتل على مسامعنا سورة الحشر فلم يفتح الله عليه بحرف
فقال الشيخ اقرأ لنا ما تيسر من سورة التغابن فلم يفتح الله عليه
بحرف . قال اقرأ ما تذكره من سورة الصف فلم يفتح الله
عليه بحرف .

فغضب الشيخ كثيراً ونادى احد تلاميذه وقال له احضر العصا
والفلقه يا بني فجاء التلميذ بالعصا والفلق ثم دعا الشيخ تلميذاً آخر
وامسك رجله بمِرسة كانت مشدودة بعصا غليظة وانهاى الشيخ على
رجلي زميلنا ضرباً دوناً شفقة ولا رحمة ولم ينقطع الشيخ عن جلده
بالعصا الا بعد ان سالت الدماء من رجله فركله بقدمه قائلاً قم
يا خبيث قد ضاع كل ما بذلناه في سبيلك من جهود وسهر على
تربيتك فانصب صاحبنا على قدميه فاتحاً ذراعيه وقبض بهما على
خصرتي الشيخ محاولاً طرحه ارضاً ولكنه لم يفلح لان الشيخ

كان ناثيء البطن ضخيم الجثة وبعد ذلك قبض التلاميذ على صاحبنا
 واجلسوه مكانه بعد ان اشبعه الشيخ لکماً وضرباً. وعند الظهيرة
 عاد صاحبنا بأثناذ الى المنزل وابى ان يرجع ثانية الى الكتاب
 فقالت له امه « ان لم تذهب الى الكتاب وتجدد نشاطك وتحفظ
 ما نسيته من القرآن الكريم تلاقى منى ومن ابىك اشد العقاب
 واذا ثبت الى رشدك ورجعت الى صوابك وعدت الى الكتاب
 والى متابعة دروسك يجد واجتهاد اكرمناك وانزلناك من نفوسنا
 منزلة القلب من الجسد . فقال صاحبنا « لن أعود الى الكتاب
 لان الشيخ يحفظني القرآن الكريم ولا يفهمني معانيه ولا يستطيع
 ان احفظ شيئاً قبل ان افهم معناه ولو خيرت بين البقاء في البيت
 الذي يفوق الجحيم المستعر حرارة واسوداداً وبين الذهاب الى
 الكتاب التي ترعمين انها فردوس ارضي لآثرت البقاء في المنزل
 على الذهاب الى الكتاب .

الفصل الخامس

من الظلمات الى النور

ابى صاحبنا ان يعود الى الكتاب وظل قابلاً في عقر دار ابيه
 يتخبط في دياجير الظلام خبط عشواء لا يملك من امره شيئاً ولا
 يعلم ما تكنه له الاقدار وما ستأتي به الايام فسئم الحياه ومل
 العيش وضافت به الارض على وسعها وحرار في امره وضج الناس
 منه . وكان يقضي ايامه في عويل وصراخ ونحيب ويمضي لياليه

في سر وأرق وسهاد وتأوهات صادرة عن قلب اضناه الكمد
 تشيب الرضيع وتمزق نياط القلوب وتفتت الاكباد ولو قطعت
 من الصخر الصلد وقدت من الحديد . فضجرت امه منه ومن
 الحياة التي كانت تقاسمه البكاء والآلام والتهوهات وضافت
 به وبفسها ذرعاً واعيتها الحيلة في اقناع ولدها ان الدنيا دار الفناء
 وان الآخرة دار القباء وانه سير تد يوم القيامة بصيراً . وسينعم
 بنعيم جنة الخلد ويمتع نفسه بما فيها من خيرات لا تعد ولا تحصى
 وكان صاحبنا يفند زعم امه ويقول لها بتهكم وسخرية لاذعة لو
 شاء الله لجعلني بصيراً في الدارين ولو اراد لما حرمني رؤية كونه
 العجيب ولما سلبني اعزوا على الحواس التي وهبني اياها كسائر
 مخلوقاته ولما جعلني سخرية الساخرين ومحطاً لتهكم المتكلمين
 الذين يتباهون باسوداد عيونهم وحورها واتساعها ويفاخرون
 غيرهم بزرقتها وجمالها . ومن اين لي ان ارتد بصيراً في الآخرة
 وقد قال تعالى في قرآنه « ومن كان في هذه الدنيا اعمى فهو في
 الآخرة اعمى واهل سبيلاً » وكان صاحبنا حينذاك يجهل تفسير
 هذه الآية الكريمة . فقالت له امه دع عنك يا بني هذه الخواطر
 المشينه والافكار السيئة ولا تنطق بها وثق بربك الذي خلقك
 فسواك فعدلك في اي صورة ما شاء ركبك . واحبر صبرا جميلا
 فممن صبر ظفر ومن ليج كفر ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز
 « ولنبلونكم حتى نعلم الصابرين منكم ونبلو اخباركم » اتق الله
 يا بني واخشى عذابه ان اكرم الناس عند الله اتقاهم وامر
 بالمعروف وانه عن المنكر كما امر الله وانزع من صدرك هذه

النعمة وهذه الافكار الجهنمية التي لا ادري كيف تسربت الى
 نفسك ولا من اين استقيتها واقم الصلاة واد جميع الفرائض
 الدينية فما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وسيورث الفردوس عباد
 الله الصالحين وقد قال تعالى « سابعوا الى مغفرة من ربكم وجنة
 عرضها كعرض السماء والارض اعدت للمتقين » فقال صاحبنا انني
 لا اعلم متى يأتي يوم القيامة ولا في اي مكان يكون ولست على
 يقين من وجود نعيم مقيم وجحيم مستعر ومبلغ علمي ان المرء ينعم
 بحياته في شرح شبابه لا في ايام كهولته وان جرعة من الماء والمرء
 صاد خير من جرعات والمرء مرتو . ان المبصرين يتمتعون بجمال
 الحياة وخيرات الآخرة ان كانوا صالحين . فلماذا ميز الله المبصرين
 عني ونقصني حقي ؟ فقالت له امه هذا ما قدر الله عليك يا بني وما
 كتبه لك . فقال صاحبنا هذا ما قدره الله علي وما كتبه علي فلماذا
 لم يقدره علي غيري من اترابي ولم يكتبه لسواي من ابناء قريتي
 ثم قال لا ادري لماذا عاكسني الزمن وعضني الدهر بنابه العطبة
 الحادة وقست نوااميس الطبيعة علي وشأت كلها ان اكون
 كفيفاً . ليت الحمام يزورني في شرح شبابي ويستل مني الوديعة
 فاني لا امن بها عليه فقد كرهت الحياة ومللت البقاء فيها . فقالت
 له امه « هون عليك يا بني ولا تقنط من رحمة الله فهو الذي خلقك
 ولن ينساك » كانت عظات امه لا تنجد من ولدها اذنأ صاغية وكان
 صاحبنا يضرب بها عرض الحائط ولا يعتبرها سوى تخدير للجروح
 وتسكين للالام . فلم يلتفت اليها وظل تائها في غياهب ضلالته
 التي ورثها عن مصيبتها ولم يقصدها ولم يخترها لنفسه . كان صاحبنا

يقاسي الآم اللازمة النفسية التي حلت به ويعاني شدة ما كان عليه
 من طوى فكري وتعطش عقلي بين جدران سجنه الريفي المتواضع
 الذي كان أقرب الى الغنى منه الى الفقر . وكانت سحب الظلام
 والجهالة تظلل قرية صاحبنا قرية صوريث وتجعل من سمائها قامة
 حالكة الظلمة ومن نهارها ليلاً دامساً . فما فتئت سحب الظلام
 ان تلاشت شيئاً فشيئاً وادبر الليل بحلته وسكونه واقبلت
 رسل الصباح مبشرة بأفول الليل وبزوغ الفجر . فانفلق الصباح
 صباح اليوم التاسع عشر من شهر ايلول عام ثلاثة واربعين وتسع
 مائة والف والتحق صاحبنا بالمدرسة العلائية للمكفوفين التي كانت
 آنذاك في مدينة خليل الرحمن . وكانت ولا تزال تعلم المكفوفين
 الكتابة النافرة والقراءة بواسطة حاسة اللمس وتزخرهم على ممارسة
 الصناعات اليدوية من مكائس وكراس وغير ذلك من الصناعات
 اليدوية التي ينتفعون بها وتنهض بهم من حالة الضنك والضيق
 التي كان ولا يزال يروح تحت عبئها الثقيل الوف المكفوفين من
 احدث ومن بلغوا من السن عتياً في الشرق العربي الى حالة مرضية
 وتلقنهم جميع الدروس العصرية الابتدائية وتعلمهم الضرب على
 الآلات الكاتبة العربية والانكليزية . ويسهر رئيس هذه المؤسسة
 الاجتماعية الكبرى الفريدة من نوعها في بلادنا على راحتهم
 وتربيتهم تربية صالحة سهر الاب على راحة وتنشئة وتربية بنيه .
 بدأ صاحبنا يعب من معين العلم في العلائية واستطاع في عشرين
 يوماً ونيف ان يلم بمبادئ الكتابة النقطية والقراءة التسمية
 باللغتين العربية والانكليزية فنال ثقة رئيس العلائية واعجاب

أساتذتها وتشجيعهم وثنائهم وفي أوائل شهر تموز عام اربعة
 واربعين وتسعمائة والف ادى الفحص السنوي الاخير ونال
 الرتبة الاولى في صفه . ثم ودع صاحبنا رئيس المدرسة ومعلماته
 ومعلميه وزملائه وعاد الى قريته « قرية صوريه » . ليقتضي
 العطلة الصيفية بين ظهراني اهله وذويه وما كادت العطلة الصيفية
 تقترب من النهاية ويأتي اليوم التاسع من شهر ايلول سنة اربع
 واربعين وتسعمائة والف حتى اصيب صاحبنا بوبأ التيفوئيد
 ونقل الى مستشفى مارلوقه الذي كان آنذاك في مدينة خليل
 الرحمن . وظل صاحبنا في المستشفى يعالج سكرات الموت طيلة
 ثلاثة اشهر . ولما ابل من مرضه جدد نشاطه وعاد لمتابعة دروسه
 في العلائيه . وكان الامتحان الفصلي الأول على الابواب فادى
 الفحص مع زملائه بأذن من ادارة المدرسة واحرز الدرجة الثانية
 بعد ان انكب على دروسه مدة اسبوعين لم يذق خلالها طعم النوم
 الا قليلا . ولكنه استرجع رتبته الرتبة الاولى بعد ان ادى
 الفحص السنوي الاخير في أوائل تموز سنة خمس واربعين
 وتسعمائة والف . وظل محافظاً على مركزه مقرباً من نفوس
 اساتذته وزملائه الى ان انتهى آخر صف في العلائيه وهو الصف
 السادس الابتدائي ، وكان ذلك في صبيحة اليوم الثاني عشر من
 شهر تموز سنة ست واربعين وتسعمائة والف وفي صبيحة اليوم
 الاول من شهر تشرين الاول عام ستة واربعين وتسعمائة والف
 قبض لصاحبنا ان يلتحق بمدرسة خليل الرحمن الثانوية للمبصرين
 خاصة بالرغم مما لاقاه من صعاب ومشاق وبالرغم من معارضة

رئيس المدرسة ومفتش معارف لواء القدس آنذاك . ويعود الفضل في ذلك الى احدى موظفات دائرة الشؤون الاجتماعية وكانت الوظيفة هذه على جانب عظيم من كرم الاخلاق ونبل الخصال وحب الانسانية والخير العام جذابة على جانب وافر من جماله النفس والجسد . وبعد تردد ولأي اذن رئيس المدرسة لصاحبنا بالدخول الى قاعة الدرس وظل محافظاً على سيرته الاولى من جد واجتهاد وسار في موكب زملائه المبصرين جنباً الى جنب ويداً بيد في الوقت الذي كان لا يجد من يقرأ له دروسه لانها لم تكن مطبوعة بالخط النقطي . وفي اليوم السادس من شهر تموز سنة سبع واربعين وتسعمائة والف ادى صاحبنا كزملائه المبصرين الامتحان السنوي الاخير سنوياً ونال الرتبة السابعة من بين تسعة وثلاثين طالباً وعاد الى قريته مكللاً بأكاليل الظفر والنصر ، في صبيحة اليوم الثالث عشر من شهر تموز عام سبع واربعين وتسعمائة والف بعد ان ودع اساتذة المدرسة وشكر لهم حسن معاملتهم له وعظفهم عليه . وفي صبيحة اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة سبع واربعين وتسعمائة الف غادر صاحبنا منزل ابيه قاصداً مدرسة خليل الرحمن الثانوية حيث رفع الى الصف الاول الثانوي وسار مع زملائه في ميدان العلم بنشاط واجتهاد وارادة تلين لها الصخور وعزيمة ترى البعيد قريباً وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام سبع واربعين وتسعمائة والف صدر مشرّع يقضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود فاحتج عرب فلسطين ورفضوا هذا المشروع واضطربت الاحوال في الديار المقدسة

وتعطلت الأعمال وأغلقت المدارس والكليات أبوابها في أواخر نيسان عام ثمانية وأربعين وتسعمائة والف . وعاد صاحبنا الى قريته ولم يؤد الامتحان السنوي .

الفصل السادس

الى بلاد الارز

ولى الهزيع الاخير من الليل وأقبلت تباشير الصباح صباح اليوم الحادي عشر من شهر أيار عام ثمانية وأربعين وتسعمائة والف غادر صاحبنا مسقط رأسه قرية صوري ف ووطنه العزيز فلسطين تحت دوي المدافع وأزيز الرصاص . فوصل مدينة عمان عاصمة شرق الاردن عند الساعة الرابعة من اليوم ذاته وقضى تلك الليلة في فندق الأمراء . وفي صبيحة اليوم التالي غادر صاحبنا مدينة عمان فوصل مدينة دمشق عاصمة الجمهورية السورية بعد الساعة السادسة من مساء اليوم الثاني عشر من شهر أيار عام ثمانية وأربعين وتسعمائة والف . وظل تزيل فندق السعادة ثلاثة ايام . ولما ابل من وعكة كانت قد امت به في العاصمة السورية غادرها قاصداً مدينة بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية قبيل ظهر اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ثمان وتسعمائة والف . فبلغ به المطاف الى عروس الشام وام العلوم مدينة بيروت في ساعة مبكرة من مساء ذلك اليوم التاريخي الذي انزل فيه آخر علم بريطاني من سماء الديار المقدسة ودارت رحى الحرب فيه بين العرب وربائب الاستعمار البريطاني اليهود على مسرح فلسطين

مهد الانبياء والرسل الكرام وعرين الشعب الفلسطيني الذي قارع
بريطانيا الاستعمارية وابنتها الصهيونية ربع قرن فبات تلك الليلة في
فندق الاندلس وظل نزيل ذلك الفندق طيلة شهر ونصف . ثم
غادره الى مسكن متواضع يقع في احدى زوايا حي عائشة بكار
حيث قضى فيه ما تبقى من فصل الصيف .

وفي صبيحة اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول
عام ثمانية واربعين وتسعمائة والف . دبح صاحبنا رسالة وجهها
الى عميد الجامعة الاميركية في بيروت وكانت تتضمن تلك الرسالة
رغبة صاحبنا في الالتحاق بجامعة بيروت الاميركية ومنارة العلم
والثقافة في الشرق كما يقولون . ثم ركب صاحبنا الحافلة الكهربائية
قاصداً مكتب عميد الجامعة . ولما اقترب من بوابة الجامعة
الوسطى اعترضه البواب قائلاً « الى اين انت ذاهب يا شيخ » فقال
صاحبنا « اود ان اقابل عميد الجامعة ياسيدي » فقال له البواب
متعجباً « ان مكتب العيد لا يزال مغلقاً وهو لا يستقبل احداً
الا بعد الساعة الحادية عشر من كل يوم » فقال صاحبنا « اتأذن
لي ياسيدي ان ابقى هنا حتى يحين الوقت الذي يقابل العيد فيه
الناس » فقال البواب « لا اظن ان العيد يأذن لك بمقابلته » ثم
قال « مالك وللمقابلة العيد يا شيخ فان كنت تبغي نقوداً تكسب
بها قوت يومك فليست الجامعة معدة للتصدق على الفقراء والمحتاجين
وليست هذه مهمة عميدها ولكنني انصحك ان تذهب الى مأوى
العجزة حيث يتوفر اللباس والغذاء لك ولأمثالك » وقال احد
جلساء البواب لصاحبنا « بأي دين تدين يا شيخ » فقال صاحبنا

« ادين بالاسلام يا سيدي » ثم قال انصحك يا شيخ ان تذهب الى دار الفتوى وتبسط حالتك لسماحة المفتي لعله يساعدك ويدقق بكلية فاروق الشرعية القائمة على رمل الزيدانية حيث تتوفر لك جميع وسائل الراحة . وبعد ان تقضي خمسة اعوام متتالية في هذه الكلية تتلقن خلالها القرآن الكريم واصول الشريعة الاسلامية تخرج من الكلية واضعاً العمامة والطربوش على رأسك لابساً الجبة والفقطان وحينئذ يتسنى لك ان تصبح اماماً في احد المساجد او ان تكون نديماً للموتى تقرأ على قبورهم القرآن الكريم لقاء نقود تعطى لك فتكفل لك حياة هنيئة . ثم قال دع عنك الجامعة فهي ليست معدة لتعليم العميان ولا فائدة لك من الالتحاق بها لانها تلقن الطلاب الهندسة والطب والعلوم الطبيعية واللغات الانجليزية والعربية والفرنسية وهذه مواد يستحيل فهمها عليك ولا تجلب لك منفعة ولا فائدة» فضاقت صدر صاحبنا من تلك المضايقات والجهالات وتمنى ان تنشق الارض وتبلعه حتى لا يسمع تلك العبارات التي كانت تنحت من قلبه كما ينحت الحديد من الصخر ولا تلك الاحاديث التي كانت تجرعه السم الزعاف وتطبع في نفسه صور المجتمع البشري القبيحة وتشحن صدره بالنقم والضغائن على كل من يدب على وجه هذه الحرساء . وبالرغم من كل هذه الآلام النفسية ظل صاحبنا يسعى جادا في طلب العلم بهمة عالية وعزيمة صادقة قوية ولم تثبط همته وتجبط مساعيه تلك الصعاب والعقبات التي كان يجسمها لصاحبنا ذوو الارادات الضعيفة والنفوس الصغيرة والعزائم الخائرة . والى على البواب في طلبه فتناول منه البواب

الرسالة وبعث بها الى مكتب نائب العميد وبعد قليل اذن نائب
 العميد لصاحبنا بالمثول بين يديه وقال له «ان جامعة بيروت
 الاميركية يا اخي جامعة اعادت لتدريس المبصرين لا لتعليم
 المكفوفين ، واهـ مكفوفين معاهد خاصة ووسائل تمكّنهم من
 متابعة تحصيلهم » فقال صاحبنا « ليس في الشرق كله معهد ثانوي
 من هذا النوع يا صاحب كتاب » معنى النكبة » فقال نائب العميد
 « كان طلب التحاقك بالجامعة متأخرا يا اخي ولم يبق مجال لقبولك
 ثم قال سارسلك الى رئيس الكلية الاستعدادية لعله يجد لك مكاناً
 في الصف الملائم ووظف على زرّ كهربائي كان امامه وبعد هنيهة
 حضر الخادم وتأبط ذراع صاحبنا الى ان وصلا الى مكتب رئيس
 الكلية الاستعدادية فسرّد صاحبنا على مسامع نائب رئيس الكلية
 الاستعدادية ما سرّده على مسامع نائب العميد فقال نائب رئيس
 الكلية الاستعدادية لصاحبنا ما قاله له نائب العميد قبل بضع دقائق
 ثم عاد صاحبنا الى مسكنه ساخطاً على الدنيا ومن فيها حتى على نفسه
 وفي صبيحة اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني عام ثمانية
 واربعين وتسعمائة والف غادر صاحبنا مسكنه قاصداً مكتب
 الهيئة العربية العليا لفلسطين الذي كان قائماً آنذاك على رأس بيروت
 فوصله بعد مشقة وجهد جليل وبعد ان سرّد قصته على مسامع
 اول الامر فيه حملوه رسالة كانت موجهة الى سماحة مفتي الجمهورية
 اللبنانية فحووها طلب الحاق صاحبنا بكلية فاروق الشرعية
 القائمة على رمل الزيدانية وارسلوا معه شاباً ليرشده
 الى مقر دار الفتوى ولكن سماحة مفتي الجمهورية

اللبنانية اعمل تلك الرسالة ورسالة اخرى كانت موجهة لسماحته
 من قبل المكتب ذاته ورفض قبول صاحبنا كطالب بكلية
 فاروق الشرعية بحجة ان كلية فاروق تدرس بالاضافة الى القرآن
 الكريم والشريعة الاسلامية العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية
 ولا قبل لطالب ضرير كصاحبنا ان يستوعبها وان يجاري
 المبصرين فيها . فالقى صاحبنا نفسه في مأزق حرج لا يستطيع
 الخلاص منه وكادت مساعيه وجروده تؤد ضحية للثانية والعجرفة
 لو لا ان هداه الله الى منظمة انسانية اطلقت على نفسها مكتب
 فلسطين الدائم فاكرمت مشواه وانزلته المنزلة الثلاثة به ومهدت
 لصاحبنا سبيل الالتحاق بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت
 وفي صبيحة اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني عام
 ثمانية واربعين وتسعمائة والى قيض لصاحبنا ان يلتحق بالاسنة
 الثانوية الرابعة بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية فلاقى من عميدها
 واساتذتها التشجيع على العب من منهل العلم واللفظ والمعاملة
 الحسنة وبالرغم من الصعاب التي كانت تعترض صاحبنا في الدرس
 والتحصيل ومن قفزه من السنة الاولى الثانوية الى الرابعة الثانوية
 تمكن من مجازاة اخوانه المبصرين في كل المواد ما خلا العلوم
 الطبيعية والرياضية وكان صاحبنا يعتمد في دراسته على حاسة السمع
 وعلى معونة لفيف من الفتيات اللواتي كن يدعونه الى منازلهن
 ويقرأن له دروسه وما يشاء . من كتب المطالعة غير آبهات بما
 كان يدور حولهن من اتهامات واحاديث لا تليق بشرفهن
 وحصانتهم . وفي اوائل شهر حزيران عام تسعة واربعين وتسعمائة

والف طلب صاحبنا من المجلس الثقافي الاعلى البريطاني السماح له
بتأدية امتحان «لندن متريكوليشن» شريطة ان يستبدل
الرياضيات بأي موضوع شاء لانه كان من التندر عليه وعلى
مثاله في الشرق دراسة هذه المادة. فباء طلبه بالفشل لان الرياضيات
من المواد الاساسية في امتحان «لندن متريكوليشن» ولا يجوز
استبدالها بغيرها من المواد ولان المكفوفين في بريطانيا يؤدون
ذلك الامتحان بما فيه الرياضيات وكانت هذه اعظم صدمة لقيها
صاحبنا في حياته بعد ان فقد بصره .

كان صاحبنا قد وجه كتاباً الى عميد دار العلوم بجامعة
قواء الاول بخصوص التحاقه بالكلية ، وشاءت الصدفة الغريبة
ان يكون رد وزارة المعارف المصرية على طلب صاحبنا رداً
ايجابياً لا سلبياً كردّ رئاسة جامعة بيروت الاميركية ورد
سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية بخصوص التحاقه بكلية فاروق
الشرعية وقد ورد في رد وزارة المعارف المصرية المؤرخ في اليوم
الثامن من شهر كانون الثاني عام تسعة واربعين وتسعمائة وألف
ان شهادة كلية المقاصد الاسلامية - بيروت من الشهادات
التي تجيز لحاملها التقدم لامتحان المسابقة المقرر لدخول الكلية
وان لائحة الكلية لا تمنع من قبول طالب ضرير على الا يعد
لمهنة التدريس والا تمنح الامتيازات التي يمنحها من يعد لهذه
المهنة في الكلية . فارسل صاحبنا شهادة تثبت انه اجتاز السنة
الرابعة الثانوية بالقسم الانجليزي بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية
وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول عام تسعة واربعين

وتسعيه والف ، تسلم صاحبنا رسالة من قبل وزارة المعارف المصرية جاء فيها : « نفيدكم بشأن طلب التحاقكم بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الاول بانـه يجب ارسـال مسوغات الالتحاق الناقصة وهي شهادة الميلاد والشهادة الطبية الدالة على الخلو من الامراض المعدية والمطفيليات . فنرجو ارسالها في اقرب فرصة ممكنة حتى يمكن البت في امر قبولكم بالكلية . فشكر صاحبنا وزارة المعارف المصرية على حسن ضياعها وارسل لها مسوغات الالتحاق الناقصة . وحن موعد بدء الدراسة ولما يتسلم صاحبنا رد وزارة المعارف المصرية ولم تسمح له وزارة الداخلية المصرية بدخول الاراضي المصرية فأبرق صاحبنا الى الوزارتين ولكن لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاهياة لمن تنادي وذهبت مساعي صاحبنا وجهوده أدراج الرياح ودون جدوى .

الفصل السابع

زهرة في حقل عوسج

كان ينقص كلية المقاصد الاسلامية في بيروت لما التحق بها صاحبنا قسم داخلي لسكنى الغرباء . وكان صاحبنا منذ نعومة أظفاره ، فوقفت هذه المعضلة في وجهه وكادت توحد سبيل العلم الشائك الذي اجتاز منه الثلث الاول بعد مشقة وعناء . وكانت هذه العقبة الكثود كفيفة لان توقف صاحبنا موقف الحيرة

والاضطراب والذهول لان حالته المادية لم تكن تساعده على السكنى في منزل خاص به لكثرة ما يتطلبه ذلك المنزل من نفقات ، ولان عاهته لا تمكنه من السكنى في منزل خاص بمفرده ، فهو في حاجة ماسة الى من يحضر له الطعام ويقوم بخدمته وتنظيف منزله وملابسه . وبعد روية وتفكير عميق وطول أناة تبلورت في دماغ صاحبنا فكرة مؤاها ان لا سبيل له للاستمرار في متابعة الدرس والتحصيل وكانت هذه أمنية منذ حداثة سنه وعز على صاحبنا ان يكون نصيبه الفشل وان يرتد خائباً بعد ان بلغ شأواً بعيداً في تذوق لذة العلم والثقافة وبعد ان قطع الشوط الأول في سبيل الدراسة ووقف امام هذه المشكلة التي لم يجد سبيلاً لتذليلها موقف اليأس الحائر الذي لا حول له ولا طول ولا يدري ماذا عساه ان يفعل وقرر في نفسه ان يعود الى مسقط رأسه وان يترك العلم لذوي الوجاهة والثراء وان يتخذ له صنع كراسي الخيزران والمكانس وفراشي الارض عملاً ليحصل بواسطته على قوته الضروري . واذا لم تؤمن هذه الحرفة له معاشه يعود فيحفظ عن ظهر قلب ما يستطيع حفظه من القرآن الكريم ويضع العمامة على هامته ويرتدي الجلبة والقفطان ويتقلد السبح ويرخي ذقنه وينادم الموتى وينفق أيام حياته على المقابر وفي المآتم . وهم صاحبنا بتنفيذ ما قرره ، ولكن عميد كلية المقاصد الاسلامية في بيروت آنذاك اتصل بواسطة الهاتف بأحد أعضاء مكتب فلسطين الدائم في بيروت وكان ذلك العضو آنذاك ايضاً عضواً من أعضاء عمدة دار الايتام الاسلامية في بيروت ومراقب شؤون التعليم فيها

وكانت نتيجة اتصال عميد الكلية بمراقب شؤون التعليم في الميتم الاسلامي ان اسكن صاحبنا في الميتم الاسلامي لقاء أجور زهيدة كانت تدفع لمحاسن الدار كل شهر. وفي أمسية اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني عام ثمانية واربعين وتسعمائة والـ «م» وضع لصاحبنا سرير وضع في غرفة حقيرة الى جانب سرير كان قد اعد لاحد ابناء الدار لانه تجاوز السن القانونية التي لا تسمح له بالمبيت مع اخوانه الاطفال الأيتام الذين كان لا يتجاوز اكبرهم سنّاً الرابعة عشر وكان ابن الدار هذا قد تجاوز العشرين من سنه على الاقل ولم يكن بالامكان فصله عن حظيرة الميتم لانه كان لقيطاً معدماً وذاعاه في احد ساقيه . وكانت الغرفة التي كان يبيت فيها صاحبنا الى جانب جاره اللقيط مباحة لجلوس حارس الدار وبوابها وكان رفيق صاحبنا في المبيت اسكافي الميتم وكان سريره يتفوق على سرير صاحبنا في الاناقة والنظافة والترتيب لانه كان يميزا عن صاحبنا وكان يلقي عناية خاصة من قبل المسؤولات عن تنظيف الملابس والفرش والاسرة في الدار. بينما كان صاحبنا مهملاً لا يعنى بأمره ولا يتهأ له ما تهيأ لجاره لانه كان منكباً على دروسه منهمكاً في المطالعة والحصيل لا يلتفت الى أحد ولا يتدخل في شؤون غيره بعيداً عن المجاملات غير المجدية لا يغازل بعض عانسات الدار كما كان يفعل غيره لان ذلك لا يجديه نفعاً ولا يعود عليه الا بضياع وقته الثمين في تجاذب اطراف الحديث مع أناس ليسوا من مقامه وكان صاحبنا يربأ بنفسه ان يجالس الرعناء وان يشاطرهم لهوهم وغيمهم وأن يغازل عانسات يفقن امه سنّاً. وكانت مغزلاتهن

سهلة المتناول يسيرة الامر لانهن كن ساذجات سلسات الانقياد
 كالريشة في مهب الريح لا يثبتن على حال وكانت مغازلتهم مغازلة آثمة
 سافلة المرامي لانهن حرم من التمتع بلذة الحياة الزوجية
 لانصراف الشباب عنهن الى غيرهن . وكان صاحبنا يحب المغازلات
 البريئة التي كانت بعيدة عن تلك البيئة التي لا تصلح الا لنمو الفسق
 والفجور وكان صاحبنا يأبى ان يجاري هؤلاء فيما يعملون لئلا
 يتسرب الى نفسه الفساد ويشوب اخلاقه الحميدة الانحطاط فينغمس
 في ملذاته ويندفع مع تيار عواطفه وشهوات نفسه وينصرف عن
 السير في سبيل هدفه السامي ويضيع حياته بين احضان بنات حواء
 ولذلك كان صاحبنا مكروهاً من قبل بعضهن بغياً الى بعضهن
 سبجاً ثقيل الظل في نظر من ساءت سيرتها منهن . وكان لازماً على
 صاحبنا ان يكيف نفسه حسب ما تقتضيه الظروف وان يجامل
 من يعيش معهم وان يداريهم ولو بعض المداراة على الاقل ولا
 سيما النساء منهم لأن احوالهن النفسية الشاذة تتطلب ذلك ولانهن
 كن مفعمات بحب السيطرة والنفوذ وان كن لسن من العلم والثقافة
 في شيء وكن لا يتورعن من الانتقام ممن لا يأتمر بأمرهن مهما
 كانت ومهما ساءت عواقبه بوسائلهن الحسيسة الدنيئة . ولكن
 صاحبنا تحاشاهن وتجنب كل من كان يرى في تجنبه خيراً وفي
 معاشرته شراً لان صاحبنا قد لذع من معاشرة الأشرار من الناس
 ولا سيما الشريرات من النساء لما كان في دور المراهقة وكان حينذاك
 يتلقى دروسه في المدرسة العلائقية للمكفوفين في فلسطين والمؤمن
 لا يلدغ من جحر مرتين . وكان اللدغ الذي لدغه صاحبنا وهو

في دور المراهقة على يدي مراقبة القسم الداخلي في المدرسة اللائحة
للمكفوفين في فلسطين حين ان راودته عن نفسها وكانت في
العقد الرابع من عمرها فلاقت رغبتها من صاحبنا اذناً صمماً و ارادة
لا تقاوم باديء ذي بدء ولكنها ظلت جادة في السعي لتحقيق
رغبتها تارة بالترغيب وبالترهيب تارة اخرى وبعد السعي الحثيث
والاغراآت الكثيرة خلقت لنفسها مكاناً في قلب صاحبنا وشجعته
على ارتكاب الفاحشة وبلغت وطرها منه . ويقول صاحبنا كما قال
يوسف بن يعقوب : « وما ابريء نفسي ان النفس لامارة بالسوء »
وكان صاحبنا في ذلك الحين اضعف من ان يقاوم رغبات
نفسه وشهواته ككل انسان وان يقف في وجه ارادة العانسات
وهذه نتيجة طبيعية لمعاشرة الافاعي من النساء فمن عاشر العفيفات
الطاهرات ازداد عفة وطهارة ، ومن عاشر الفاسقات الفاجرات
ازداد فسقاً وفجوراً واذا رافقت الفتيات النبلاء الاختيار اكتسبت
منهم وتطبعت بأطباعهم وكذلك اذا عاشرت الفتيات ابناء السوء
والاشرار أخذن عنهم وسرن سيرتهم لان للفرائز والبيئات اثرآ
كبيراً في حياة الافراد والجماعات سواء في الخير او الشر .

وما عثم مدير المدرسة اللائحة للمكفوفين ان علم بكل ما
وقع بين تلميذه صاحبنا وبين موظفته وقريبته ويعود الفضل في ذلك
الى زوجه التي كانت تساعد في ادارة شؤون المدرسة وهي
سويسرية من أصل الماني دقيقة الملاحظة مثال الزوجة المحلصة تجيد
اللغتين الالمانية والانجليزية وتعلم بعض الامام باللغتين العربية
والافرنسية . وكانت الاجراءآت التي اتخذها مدير المدرسة اللائحة

للمكفوفين ليمنع وقوع مثل هذا الحادث ان اقال مراقبة القسم
 الداخلي في المدرسة العلائقية من منصبها وابقى صاحبنا في حظيرة
 المدرسة ليكمل عامه الدراسي وكان ذلك العام آخر عام قضاه
 صاحبنا بين جدران العلائقية وبعد أيام قلائل شغلت مكان الوظيفة
 مقاله موظفة جديدة اصغر سناً من سابقتها وانعم ملمساً واوفر
 جمالا ولم يمض عليها بضعة ايام في المدرسة حتى بدأت تتودد
 لصاحبنا وتنتظر بفارغ الصبر الفرص التي تتيح لها التحدث مع
 صاحبنا وكانت تنفحه هدايا من الشوكولاته وسائر الحلويات
 والسكاكر. ولما كان يحين وقت تقليم الاظافر كانت تقضي مدة
 طويلة في تقليم اظافر صاحبنا وهي تناغيه وتناجيه وتلسه بأناملها
 وتخدش جسمه بأظافرها الحادة الوردية . ولكن صاحبنا كان
 يلاقي كل هذه المداعبات والمناغشات ببروده وعدم مبالاة
 واكتراث . فساءها ذلك وضاعت الدنيا في وجهها وحارت في امر
 صاحبنا ووقفت مذهولة لانها لم تتمكن من السيطرة عليه واجتذابه
 بالرغم مما بذلته في سبيل ذلك من شتى الجهود والاغراءات ولما
 غادر صاحبنا المدرسة العلائقية ليقضي عطلة الربيع بين ظهراني اهله
 وذويه أسفت لفراقه أسفاً شديداً وودعته وهي تتكلف البكاء
 وناولته ورقة من القطع الكبير كتبت عليها بخط يدها عنوانها
 مكرراً نيفاً وعشرين مرة. وفي أثناء العطلة حمل ساعي البريد الى
 صاحبنا رسالة مسجلة عبرت له فيها عن عواطفها نحوه وعن شفقتها
 به وحبه له . فرد عليها صاحبنا بمثل ما كتبت وكتب اليها رسالة
 مسجلة وأرسلها لها وعلى اثر تسلمها تلك الرسالة ذهبت من فورها

الى مدير المدرسة العلائية باكية ساخطة واطلعت على الرسالة وزعمت
له انها لم تكتب لصاحبنا قط وانما رسالته هذه من نسج الخيال .
وكان مدير المدرسة العلائية شديد النقمة على صاحبنا فأزداد حنقه
عليه دون ان يفكر في أمره وان يراعي ظروفه . ولما تخرج
صاحبنا من المدرسة العلائية كتب له مديرها ملاحظة على شهادته :
« لقد اعرب عن استمراره في الدروس ولكنني لا اتوقع له النجاح »
فتأثر صاحبنا كثيراً وكان لهذه العبارة الوقع الاليم في نفسه
وخشي ان تسد عليه سبيل الالتحاق بأحدى المدارس فكره المدير
وعبارته كرهاً شديداً ولكن هذه العبارة لم تضره ولم تسد
عليه الطريق . وقد ورد في القرآن الكريم هذه الآية « وعسى ان
تكروها شيئاً وهو خير لكم » واثبت هذا علم النفس الحديث .
كان الميتم الاسلامي يبعد عن كلية المقاصد الاسلاميه نحواً
من ثلاثمائة متر ونيف وكان صاحبنا يقطع هذه المسافة بمفرده
بضع مرات كل يوم غير آبه بحركة السيارات والقطارات
الكهربائية التي كانت لا تغيب عنها الشمس ويبروت مدينة مزدحمة
بشئى انواع السيارات . وكان صاحبنا يقطع هذه المسافة في مدة
لا تزيد عن ربع ساعة بينما كان يقطعها مع زملائه المبصرين اذا صادفوه
في الطريق في مدة تتراوح بين الخمس والسبع دقائق وكان في
اغلب الاحيان يصل متأخراً عن موعد قرع الجرس الذي كان يأذن
بالدخول الى الصف ببضع دقائق لانه كان لا يجد طعامه جاهزاً في
الوقت المحدد وكثيراً ما كان يعود من الدار الى الكلية دون
أن يتناول طعامه وكان يسير في طريقه بتناقل وببطء مرهفاً

اذنيه ليميز بين دوي السيارة العابرة والسيارة الذاهبة وكان اذا اراد ان ينتقل من رصيف الى آخر اضطر الى الانتظار طويلا حتى تخدم حركة السيارات وتهدأ قليلا ثم ينتقل مسرعا الى الرصيف الثاني بنفسه أو ينقله اليه اناس من المارة الذين كانوا يعطفون عليه ويمسكون بيده ويوصلونه الى حيث يريد واني يشاء وكان هؤلاء قليلون وقليلون . وكان بواب الدار حينذاك شابا سليم القلب شعر بما يلاقيه صاحبنا من صعاب أثناء ذهابه الى الكلية وایابه منها فتقدم من صاحبنا وقال له « سارسلك الى الكلية كل يوم على الدراجة وسأعبدك منها كذلك » .

فسر صاحبنا ايما سرور من هذه البادرة الطيبة وشكر للبواب الطيب القلب لطفه وخدماته . وما ان شعر مدير الدار بما يقدمه البواب لصاحبنا من خدمات كان هو في حاجة اليها حتى صرف البواب عن خدماته بطريقة غير مباشرة فشعر بذلك صاحبنا واراد ان يعرف السبب الذي دعا مدير الدار الى ان يتخذ مثل هذه الاجراءات القاسية ولكن معرفة ذلك أعينته ولم يجد الى اكتشافها سبيلا . ثم اعتذر لصاحبنا بواب الدار الطيب النفس عن الاستمرار في ما كان يؤديه له من خدمات كانت لا تضر بمصلحة الدار . وكانت بعض اطفال الدار يحبون صاحبنا ويتفانون في خدمته فكان بعضهم يحضر له الطعام وبعضهم يرسله الى الكلية ثم يعيده منها الى الدار بدون اذن المدير . وما عثم مدير الدار ان لاحظ ذلك فصب نقمته على كل من كان يلوذ بصاحبنا او يؤدي

اليه اية خدمة . فتجنب الاطفال صاحبنا وقللوا من خدمته لأن
مدير الدار كان يحدق اليهم بنظرات لا تنم عن رضاه بما يفعلون
فذعر الاطفال وامتلأوا لأوامره وخشوا بأسه وانقطعوا عن
مساعدة صاحبنا مرغمين ولكن قلوبهم كانت معه . وكانوا
ينتهبون فرصة غياب المدير عن الدار فيهرولون اليه ويعملون
له ما يريد . فشهرت بكل هذا إحدى ناظرات الدار وكان قد
وقع بينها وبين صاحبنا سوء تفاهم لم يتعمده صاحبنا ولم تقصده هي
ولكن الوشاة قبحهم الله يوقعون الفتن بين الاخوة وكيف
لا يوقعونها بين صديق وصديقه وكانوا من ذوات الكيد وقد
قال تعالى فيهن الآية « ان كيدهن عظيم » وحسد النساء
وغيرتهن أكثر وأقوى من كل غيره . وما فتئت تلك الناظرة
للشبهة حتى تناست كل شيء وعلمت الحقيقة وأبنت عليها
شهامتها الا ان ترسل كل يوم احد صبية الميتم ليرسل صاحبنا الى
الكلية ثم يعيده منها ولكن مدير الدار علم بذلك وامر ان
يؤتى له بالصبي فلما أوتي به قال له :

« من كلفك ان ترسل صاحبنا الى الكلية وتعيده منها »
فذعر الصبي وارتجف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ثم قال
بتلعثم :

« الناظرة الفلانية يا أستاذ » وقال المدير مهدداً الصبي بالضرب
اذا صحب صاحبنا مرة أخرى الى الكلية ثم قال للصبي :
« ليست الناظرة المسؤولة عنك وانما انا المسؤول وحدي عنكم
جميعاً » وأغلب ظن صاحبنا ان نقمة مدير الدار عليه كانت

نتيجة اشاعة اشبعت عن مدير الدار واتهم صاحبنا باشاعتها ولكنه
كان بريئاً لا ناقة له في مثل هذه الاشاعات وغيرها ولا جمل .
وكان صاحبنا ولا يزال انعزالياً لا يتدخل في شئون غيره
ولا يجرب ان يصلح لئلا يفسد وحتى لا يسيء الى الناس ولا
يسيء الناس اليه . وكانت تلك الاشاعة تزعم ان مدير الدار
يحمل لنفسه ان يخنس بعض ما يشاء من ارزاق الميتم التي كانت
تجمع لاجانة الايتام بواسطة التبرعات التي كان يتبرع بها اهل
الحبر وعن طريق السوق الخيرية التي كانت تقيمها عمدة الدار كل
عام وكانت الذي ألصق هذه التهم بمدير الدار شاب
تركي كان يعمل في الميتم وكثيراً ما كان ذلك الشاب ينقل
أخبار تلك السرقات الى صاحبنا لكن صاحبنا لم يعر مزايعم
الشاب التركي اذناً صاغية ولا التفاتاً حتى أتاه ذات مساء ببعض
المواد الغذائية التي كانت معدة لترسل الى منزل مدير الدار
فتمحق صاحبنا بما كان يخبره به الشاب التركي وثيقن من
صدق تلك المزاعم التي كانت ينفجها دائماً ويصر انها كانت
كاذبة . وكان لا بد له من ان يعجب من صدق وشهادة ذلك
الشاب التركي والثناء عليه لغيرته على مصلحة دار الايتام التي
يدعوها صاحبنا « المؤسسة الاسلامية الشبه ناجحة » ولكن كان
في فم صاحبنا ماء وهل ينطق من في فيه ماء وكان الدين يملئ على
صاحبنا ان يساهم في منع مثل هذه الصغائر والنهي عنها لا للانتقام
من مدير الدار الذي كان يكن لصاحبنا في نفسه الحقد والضعف
ولكن للاصلاح والمصلحة العامة . فكان يقبل تارة على القيام

بهذا الواجب الانساني ويحجم مرة اخرى الى ان تذكر الحديث الشريف المروي عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القائل :

(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) . وكان صاحبنا قد سمع حديث الرسول الاعظم مراراً وتكراراً عندما كان يلقيه عميد كلية المقاصد على مسامع طلاب الكلية وكان عميد الكلية يحب هذا الحديث ويجب من يعمل به . فأراد صاحبنا ان يعمل بموجب هذا الحديث النبوي الشريف وان يغير هذا المنكر الذي رآه وتحقق من صحته ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وكان كل الذي فعله او استطاع ان يفعله ان حمل بضع قطع من السكر المسروق الى أحد اعضاء عمدة الدار واخبره بكل ما كان يزوده به الشاب التركي فحاصمت عمدة الدار سرّاً مديرها اللص المثقف فأنكر عليها ذلك وحاول الخروج من هذا المأزق بشتى الوسائل والادعاءات الكاذبة ونفى عنه هذه التهم امين سر الدار وكان صديقاً له واصراً مدير الدار وصديقه أمين سرها على الانتقام من صاحبنا واخذاً يتحينان الفرص الى ذلك بعد ان انتقما من الشاب التركي وفصلاه عن عمله في الميتم .

وظل مدير الدار وصديقه امين سرها يتربقان الفرص وينتظرانها بفارغ الصبر ليوقعا بصاحبنا ما أوقعاه بالشاب التركي ظمناً وطغياناً حتى وقع بين صاحبنا وبين إحدى ناظرات الميتم سوء تفاهم سرعان ما زال فاستغل مدير الدار هذه الفرصة المؤاتية لتحقيق رغبته ففاه بعبارات قاسية لا تليق بشاب مثل صاحبنا وسرعان ما نقل

لصاحبنا ما فاه به مدير الدار في غيابه فتأثر صاحبنا وهاجست اعصابه واضطرب مزاجه فقاده افكاره الى ان يكتب الى مدير الدار رسالة ففعل ذلك ودفع اليه الرسالة بواسطة بواب الدار وكان مضمون الرسالة عتاب مشوب بالجرأة الادبية . فغضب مدير الدار وحق وثار بما تضمنته تلك الرسالة وكان مضمونها غير خليق بالغضب والاهتياج ودفع الرسالة الى صديقه امين سر الدار وأمر البواب ان يغلق الباب في وجه صاحبنا عندما يعود من الكلية ليتناول طعام الغداء . وبينما كان صاحبنا يتمشى في ملعب الكلية اذ ببواب الميتم يناديه قائلاً :
تعال واركب خلفي على الدراجة لارسلك الى مختبر مراقب شؤون التعليم في الميتم . فلبى صاحبنا نداء البواب وانصاع الى اوامره وهو لا يعلم سببا لهذا الطلب المستعجل . وبعد دقائق معدودات كان صاحبنا وبواب الدار في مختبر مراقب شؤون التعليم في الميتم فرحب صاحب المختبر به وصافحه ببشاشة وأجلسه على كرسي بقرب منضدة ولم يفتح به شيء وبعد هنيهة دخل امين سر الدار وصديق المدير المختبر وهو يلهث من التعب ويرتجف من الغضب وكان شيخاً تقدمت به السن ضخمة الجثة فوقف صاحبنا وصافحه وجلس الاثنان جنباً الى جنب . فبادر امين سر الدار وقال لصاحبنا : (لا تزال يابني طالباً ولا يحق لك ان تتناول على مدير الدار لانك لست من مصافه ولا يمكن ان تكون من مصافه) ثم قال بلفظه العامية ولهجته المطاطة :
« ان مدير الدار يحمل جائزة من مصر » وكان يريد ان يقول

ان مدير الدار حائز على شهادة من مصر . فقال صاحبنا لأمين
سر الدار :

(ما اردت ان اتناول على مدير الدار يا سيدي ولا قصدت
ان ازدرية واهاجمه ولكني طلبت الحق وقصدت الصراحة لكن
من يعمل على اظهار الحق واحباط الباطل في ايامنا هذه ايام
المداهنة والرياء تسفه الأغلبية العظمى من بني الانسان وتزدرية
وتعتبر قوله هراء وكل قوله حق وصواب وصحة . ومن اراد
ان يعايش الناس ويعايشوه وان يسير مع دولاب الحياة ذلك
الدولاب الذي نبذ من قاموسه العدالة والانصاف والحرية والجرأة
الأدبية . وقد وسع كل شيء واحتوى على كل شيء) . فقاطع
امين سر الدار صاحبنا وقال :

(لا تتفلسف يا بني فاني لا افهم ما تقول ولم اتعلم علم الكلام)
وكان يريد ان يقول اني لا اتكلم اللغة الفصحى ولم يقصد بعلم
الكلام العلم الذي عرفه الفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته
اذ قال : « علم الكلام علم يضمن الحجاج عن العقائد الايمانية
بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن
مذاهب السلف واهل السنة . وسر هذه العقائد الايمانية هو
التوحيد » . وكان مصيباً في قوله لانه كان امياً او شبه امي
رجعياً ثقيل الظل ذا عقلية متعجزة وتفكير معوج سقيم . ودار
بين صاحبنا وبين امين سر الدار حديث طويل بمل وجدال عقيم
عنيف لان صاحبنا كان مصمماً على ان يقف دون رأيه مجاهداً
لا يتحول عنه ولا يشبهه عنه شيء اذا اطمانت نفسه لصواب رأيه

وصحته وصدقه . وكان ولا يزال يربأ بنفسه الابية ان يظهر خلاف ما يبطن ولو كان كذلك (ولن يكون) لأحبه الناس وبجلوه ولو ان مدير الدار كان يعلم علم النفس كما يزعم ما عامل صاحبنا بهذه المعاملة ولما قابله بهذا الجفاء الشديد الذي كان حاجة في نفس يعقوب ولكنه كان يدعي ذلك ادعاءً والذين يدعون العلم كثيرون وكثيرون جداً .

ولما أساء به الظن ، وبعض الظن اثم ولو انه عمل بهدي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » الآية (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله ثواب رحيم) ، لما حدث ما حدث ولا كان ما كان . والحقيقة ان مدير الدار كان اعلم مما هو اعلم فيه علم النفس وكان لا يعلم من علم النفس شيئاً .

فضجر النطاسي صاحب المختبر مما دار بين امين سر الدار وبين صاحبنا فطلب الرسالة التي وجهها لمدير الدار فدفعها امين سر الدار اليه . وبعد ان قرأها تحقق من صدق قول صاحبنا وكال احتشام الرسالة ورغب لصاحبنا ان يتنازل عن حقه وان يكتب للمدير رسالة يعتذر فيها عما صدر منه . فنزل صاحبنا عند رغبة مراقب شؤون التعليم في الميتم وكان صلة الوصل بينه وبين امين صندوق مكتب فلسطين الدائم في بيروت الذي اسدى لصاحبنا

خدمات جلّی وله علیه ایادی بیضاء لاینساها الله له ان نسیها صاحبنا
ولا اظه ینساها ودیج لمدير الدار رسالة اعتذر منه فيها وما كان له
أن یعتذر لانه كان علی صواب الا ان الصواب عند اغلب الناس
یستحيل الى خطأ جسيم . ودفعها الیه بواب الدار وعاد الى الكلية
بعد ان ضاع من وقته الثمین ساعة وبعض الساعة في جدال مؤلم
وخسر اداة الاستماع الى محاضرة في الادب العربي الذي كان ولا
یزال شغوفاً به مفرماً بالعب من منهله العذب الصافي والاعتراف
من معینه الذي لا ینضب .

ومنذ ذلك الحین حذر مدير الدار وصدیقه امین سرها علی
صاحبنا الخروج من الدار وكان کل ليلة یغادرها ویختلف الى
بيت سيدة كانت تقرأ له دروسه ومنع اصدقاءه من الدخول الى
الدار وكانوا یأتون الیها في اوقات فراغهم ليقروا لصاحبنا دروسه
وكان مدير الدار یعاقب صبیة المیتة اذا اقتربوا منه وادوا
الیه ما یحتاجه من خدمات الا ان بعض ناظرات الدار کن یرسلن
صبیتهن لمعونة صاحبنا اثناء غیاب المدير عن الدار .

وذات صباح كان احد الصبیة یحمل ملابس صاحبنا وكان
قد احضرها من المكان الذي تنظف فیه وتحفف فرآه امین سر
الدار وهدده بالضرب وشتمه وكان یغلی کالمرجل حیث
قال للصبی :

(لسنا خدماً لهذا ولست مکلفاً باحضار أي شیء له) .
وكان امین سر الدار یجیلاً یفوق نخله یجلی الاهوازي وكان
فضولاً یفوق فضوله فضول الرازي . ومضت ایام وایام واسابیع

واسابيع واشهر واشهر وصاحبنا صابر على كل ما لاقاه من اولئك
 الناس من ضروب اللؤم والقساوة الا ان لكل شيء حدة ينتهي
 اليه ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده . لكن مضايقات
 مدير الدار وامين سرها لم تقف عند حدها بل كانت تزداد يوماً
 فيوما واسبوعاً فاسبوعاً وشهراً فشهرأً كان صاحبنا خلالها في
 خنك وضيق تعويه آلام نفسية فضجر الحياة ومل العلم والناس
 ومج كل شيء كانت تتوق اليه نفسه . فعادر الدار وهو في حالة
 هذيان وذهول وركب الحافلة الكهربائية قاصداً « المعرض
 احد احياء مدينة بيروت حيث كان مختبر مراقب شؤون التعليم
 في الميتم ولما نزل من القطار الكهربائي اخذ ادراجه الى المختبر
 بين جموع الناس المحتشدة وبينما هو سائراً اذ اصطدم بسيدة كانت
 مارة واستقرت يده اليمنى على موضع الغفاف منها عفواً دون
 قصد ، فغضبت السيدة وارتفع صوتها مولولاً وراحت تعنفه
 وتؤنبه وتوبخه وتشبعه ركلا برجليها وهو صامت كالصخرة الصماء
 لا ينبت بينت شفه وبينما هما كذلك هرول نحوهما رجال الامن ،
 ليقفوا على حقيقة الحال ، ولما رأوا صاحبنا رفقوا بحاله وسألوه عما
 اذا كان تعمد الاعتداء على هذه السيدة فسرده عليهم قصة هذه
 المصادفة . ولما علمت السيدة ان صاحبنا كان ضريراً اعتذرت
 له واستمحته وتابع صاحبنا سيره الى ان وصل الى المختبر وقص
 على صاحبه قصة معاملة المدير وامين السر الشاذة له ، ثم عاد الى
 الدار ولم يزدد علماً ويضطلع على جديد ، وذهبت شكواه عبثاً
 ودون جدوى ولم يحرك صاحب المختبر ساكناً ...

وكانت في الدار آنذاك فتاة يوغوسلافية كريمة المحدث جميلة
الطلعة ، حلوة البزة ، رفيعة الاخلاق . رمت بها الاقدار الى هذه
البلاد عقب الحرب العالمية الثانية ، وكانت تلك الفتاة قد نزحت
من يوغوسلافيا يوم ان ثار الجنرال تيتو على السلطات الالمانية
التي كانت قابضة على زمام الحكم حينذاك . وكانت لاتجيد من
اللغات الا لغتها اللغة اليوغوسلافية وبحكم بيئتها الجديدة كانت قد
ألمت بشيء قليل وقليل من اللغة العربية . وكانت مكروهة من
قبل كل ناظرات الدار إلا انها كانت صبورة جلدة . تحتمل ما لا
يحتمل وتطبق ما لا يطاق ، تمسباً مع تصرفات الدهر القاسية
وتقلبات الحياة التي تحفض العالي وتعلي من سفلى . وذات مساء
كان صاحبنا يتمشى في ملعب الدار فسمع صوتاً خافتاً وأثبات
تمزق نياط القلوب فسار نحو الصوت ولما دنا من الفتاة سأها قائلاً :
ما بك يا آنسة ؟ ... ثم كرر السؤال وكرره مرات ومرات
وبعد تردد طويل شرعت الفتاة في بث شكواها لصاحبنا لكنها
كانت لا تكاد تبين . الا ان قلب صاحبنا رقّ لتلك الفتاة
المسكينة وعظفت نفسه عليها وبادهلها شعوراً بشعور وصدقة
بصدقة واستطاع ان يستخلص مكنونات صدرها وان يطلع على
خبايا نفسها الطيبة في أقل من لحظة ومن اول لقاء . وكانت في
الدار عجوز شطاء انتشل الموت من بين احضانها زوجها فأوقي بها
وبينيتها الى الدار حيث كان يؤمّن لها ولهم المأكل والملبس
والمسكن . وكانت عجوز الدار قد نيفت على الحسين او تريد الا انها

كانت تظن انها لا تزال في شرح الشباب ومبة الصبا وكانت تترن
 وتبرج كصبايا العشرين وكاعبات باريس ، وفاتنات فيرونا .
 ومرت الايام والأشهر واخذت عري الصداقة الطيبة وأواصر
 المحبة الطاهرة تنمو وتزداد بين صاحبتنا وبين تلك الفتاة الشريفة
 الجريئة . فجاء اليوم السادس من أيار عام تسعة وأربعين وتسعمائة
 والف . وكان ذلك اليوم يوم ميلاد صديقة صاحبتنا فرأى ان
 آداب اللياقة وواجبات الصداقة تجلي عليه ان يشارك صديقتها في
 مسراتها وافراحها كما شاركتها في آلامها وأتراحها فقدم لها بمناسبة
 عيد ميلادها السابع عشر هدية العيد وكانت هدية متواضعة لا يقصد
 من ورائها مطلباً مادياً ولا ثناء ولا حمداً ولا شكوراً . وكانت
 تلك الهدية تتكون من باقة من الازهار والورود وعلبة من
 الشوكولاتة وشيء قليل من انواع السكاكر ونصف دزينة من
 المناديل الملونة الجميلة وبطاقة تهنئه بحلول عيد ميلاد صديقة صاحبتنا
 وكانت تلك البطاقة مكتوبة باللغة اليوغوسلافية التي كان صاحبتنا
 قد ألم بشيء قليل وقليل من مفرداتها وكانت صديقتها هي التي
 لفتته هذه المفردات القليلة ولا يدري صاحبتنا كيف انتشر خبر
 الهدية ولا يعلم كيف عرفت عجوز الدار الشمطاء ما دار بين
 صاحبتنا وبين صديقتها وكان لا يعلم ان مدير الدار وناظراتها
 يستنون الظن به ، وبعض الظن إثم ويتهمون بهتهم كان بعيداً عنها
 وبريئاً منها ومن أمثالها ، وكانت تلك التهم وغيرها أجدر ان
 تلصق بهم ومن يلوذ بهم . ويشهد الله الذي لا حد لعلمه ولا

مقياس لمعرفة وسعت رحمته تعالى كل شيء وأحاطت بكل شيء . ان صاحبنا لم ينظر الى صديقه نظرة مادية فاجرة فاسقة كما تعود معظم الناس ان ينظروا الى الفتيات المحصنات وان يقذفوهن . بل كان ينظر اليها نظرة روحانية بريئة تشوبها العواطف السامية . لكن الناس هناك لا كانوا صاحبنا وصديقه بالسنتهم والصقوا بهم التهم ، والله تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وكانت في الدار فتاة فلسطينية نازحة تعمل كممرضة في الدار لقاء راتب شهري زهيد جداً . وكانت فقيرة لا يتوفر لديها من المال ما تسد حاجتها به . وكان أهلها في عزلة عنها اذ كانت هي في بيروت حاضرة لبنان وكان أهلها في حيفا مرفأ فلسطين وعروس البحر الابيض المتوسط . وكانت لجنة اليتيم العربي في حيفا هي التي نقلت بعض الفتيات والفتيان من فلسطين الى لبنان ووضعتهم في دار الايتام الاسلامية في بيروت على نفقتها الخاصة . وكانت ممرضة الدار آنذاك في أواخر العقد الثاني من عمرها وكانت ككل فتاة من بنات سنها وفتيات عمرها تتطلب نفقات تزيد عن مرتبها الشهري أضعافاً مضاعفات . وكان العمل الذي أنيط بها عملاً شاقاً وفوق طاقتها ، اذ كانت مسئولة عن تريض ستائة يтим ویتیمه . وكانت ناظرات الدار يعاملنها معاملة السيد للخادم وجدير بالمرضات اللاتي يخففن الآلام عن المرضى ويرفهن عنهم ان يتبوأن مكانتهن في المجتمع الانساني ، وينلن اجلالاً واحتراماً من كل فرد من افراد الامة فضجرت ممرضة الدار من

التمريض والمرضى ومّلت الحياة لأنها كانت كالطير السجين لا يسمح لها ان تغادر الدار بضع ساعات تنسم فيها الهواء العليل وتروح عن نفسها الموم . وكانت في حالة من الضنك والضيّق يرثى لها . وكانت سحب الاكتئاب والهم والغم والكدر تظلمها من قمة رأسها الى أخمص قدميها . وقادتها أفكارها القاسية الى ان تتخلص من الحياة وان تنجر نفسها بالمديّة او تحرق نفسها بالنار او تتجرع السم الزعاف او تلقي بنفسها الى اليمّ من على الروشة (صخرة الانتحار) في رأس بيروت .

ولما علم صاحبنا بمكنونات نفس الممرضة ونواياها الشريرة . هرول اليها وراح يهدىء من روعها ويخفف من همومها ويطمئننها فعادت ممرضة الدار الى صوابها ، وثابت الى رشدها ، ورجعت عن غيّها بعد ان وعدها صاحبنا ان يجد لها عملاً غير هذا العمل تتقاضى من ورائه راتباً شهرياً محترماً تسد به حاجتها وتدّخر منه ما تستطيع ادخاره .

وذاث يوم ذهب صاحبنا الى مكتب يدعى مكتب الهيئة العربية لفلسطين في بيروت وقص على مسامع احد المسؤولين هناك قصة ممرضة الدار مجذافيرها . وبعد بضعة ايام اتصل ذلك الموظف بصاحبنا بواسطة الهاتف وطلب منه ان يخبر ممرضة الدار انه وجد لها عملاً في المستشفى الاسلامي في بيروت وانه يطلب منها الذهاب لمقابلة طبيب المستشفى لتسلم عملها الجديد هناك . فبلغ صاحبنا ممرضة الدار ما كلف بتبليغه ، وما على الرسول الا

البلاغ المدين . وذهبت ممرضة الدار من فورها الى المستشفى وقابلت الطبيب . وتساءلت عملها الجديد في المستشفى لقاء مرتب شهري محمود يتفق وكفاءتها وكان يفوق مرتبتها في الدار بستة اضعاف . ولما علم مدير الدار بذلك زادت ثقته على صاحبنا ووجد الفرصة مؤاتية للانتقام منه فانتهاز الفرصة واخبر صديقه امين سر الدار بالعمل الشرير في رأيه الذي قام به صاحبنا وكان عمله عملاً أنسانياً محضاً لكن الاشرار يرون الشر خيراً ويرون الخير شراً ولا يأمنون الاخير من الناس ولا يثقون بهم وكل من كان على هذه الحال كان شريراً لا ثقة له بنفسه ولا أمانة ولا ايمان عنده . وفي مساء اليوم السادس عشر من أيلول عام خمسين وتسعمائة والف طلب امين سر الدار احضار صاحبنا فحضر وبعد ان أدى التحية قال له امين سر الدار بلغته العامية .

« هل تعلم اين ذهبت ممرضة الدار » . فقال صاحبنا :

« يقال انها ذهبت الى المستشفى الاسلامي لتعمل ممرضة فيه

يا سيدي » .

فقاطعه امين سر الدار وقال :

« ألم تكن صلة الوصل بينها وبين طبيب المستشفى »

فقال صاحبنا :

« بلى يا سيدي »

وما كاد صاحبنا يتم هذه العبارة حتى انهال عليه امين سر الدار بوابل من الشتائم والالفاظ البذيئة . فتأثر صاحبنا تأثراً شديداً وقال في نفسه :

« أنت من يعمل خيراً في هذه الحياة يرى شراً ويكون
جزاؤه الشئام والاهانات »

ومن جملة ما قاله امين السر لصاحبنا :

« انك مجرم يا بني ولو كنت حاكماً لحكمت عليك بالاعدام.
واني اؤكد لك انه لم يبق لك مكان في الدار وما عليك إلا ان
تحمل امتعتك وأدواتك المدرسية وان تغادر في هذه اللحظة »

لكن صاحبنا ابى ان يمثل لأوامر امين سر الدار ورفض
ذلك رفضاً باتاً فقام امين سر الدار واتجه نحو غرفة صاحبنا وفتح
الخزانة التي كانت فيها امتعة صاحبنا وأدواته المدرسية ورمى بها
الى ساحة الدار وكانت من بينها نحو من عشرين مجلد من المجلدات
المطبوعة بالخط النافر (برايل) لكن صاحبنا ابى ان يأخذ امتعته
وأدواته إلا اذا اعيدت الى مكانها وقال :

« انه لن يأخذها ألا بأمر من مراقب شئون التعليم في الدار »
وترك صاحبنا امتعته وأدواته المدرسية مبعثرة في ساحة الدار
وذهب من فوره الى مختبر مراقب شئون التعليم في الدار آنذاك
فلم يجده . وفي المساء ذهب الى فندق الاندلس وقضى ليلته فيه .
وفي الصباح ذهب صاحبنا الى مختبر مراقب شئون التعليم في الدار
وسرد على مسامعة تفاصيل ما حدث له وما وقع بينه وبين امين سر
الدار وبعد تردد ولأني قال المراقب لصاحبنا .

« اذهب وخذ امتعتك وأدواتك من الدار »

فأسرع صاحبنا الى الدار وتسلم امتعته وأدواته المدرسية ووضعها
في بيت احدي الاسر الفلسطينية النازحة وكان ذلك البيت متواضعاً

يود صاحبنا ان يسميه «بيت السعادة» وكان بيت السعادة هذا يضم بين جدرانها اما انتزع الموت من بين احضانها زوجها . وقتاتين كانت الكبرى منهما في ذلك الحين في اواخر العقد الثالث من عمرها وكانت الصغرى في الثامنة عشرة من سنّها وفتى كان في دور المراهقة . وكانت الفتاتان تقومان بنفقات البيت بنفسيهما . وكان صاحبنا يجد في مجالسة اهل بيت السعادة متعة ولذة لولا ان دفع الفضول اخى الفتاتين الى ان يسأل صاحبنا ويقول له :

« اي هذه العاهات الثلاث تفضل يا اخي : العمى ، ام الطرش ام الخرس » فتألم صاحبنا كثيراً من هذه العبارة والتزم الصمت الا ان الصبي الح عليه بالسؤال فقال له صاحبنا والألم يحز في نفسه . والأسى يقطر من فؤاده :

« اما العمى فقد عرفته وخبرته واما الطرش والخرس فلم اعرفها ولم اذقهما بعد حتى اختار احدهما »

وظل صاحبنا نزيل فندق الاندلس حتى عثر على غرفة صغيرة متواضعة على مقربة من كلية المقاصد الاسلامية فعادر الفندق وسكنها . وذات صباح ذهب صاحبنا الى مكتب جريدة « اليوم » الغراء وهي جريدة مسائية وقص على مسامع رئيس تحريرها قصته وفي اليوم التالي نشر رئيس التحرير على صفحات جريدته قصة موجزة عن صاحبنا وعلق عليها تعليقا كان جريئاً ومنصفاً .

وكذلك نشرت القصة نفسها جريدة « الشرق » الغراء وهي جريدة مسائية ايضاً وعلق رئيس تحريرها على ذلك المقال تعليقا كان صريحا ومؤثرا .

وفي صبيحة اليوم الاول من شهر تشرين الاول عام خمسين
وتسعمائة والف م. نقل صاحبنا كتبه وامتعته من «بيت السعادة»
الى منزله الجديد وكان فيه وحيداً لا يجد من يشد ازره ولا من
يعاونه في قضاء حاجاته فاضطر الى ان يتناول طعامه في المطاعم
وان يزجج جيوانه بتنظيف ملابسه وغرفته . وكان لعزلة صاحبنا
وانفراده عن الناس أثر سيء في نفسه وفي جسده اذ أصبح فريسة
لأفكار والهواجس والهموم وتعود عادة التدخين وهي عادة سيئة
وكان لا يدخن الا السجاير الممتازة وكان يدخن كل يوم لا أقل
من بضعة وعشرين سيجارة . وكانت السجارة نديمه في وحدته
وأنيسته في وحشته وسلوته وعزاه حين يحلوا الى نفسه وحين يرخي
الليل سدوله وتسود الكون الطمأنينة والسكينة والهدوء لكن
زملاء صاحبنا توسلوا اليه ان يمتنع عن التدخين فكان لهم ما ارادوا
اذ عمل صاحبنا بنصحهم الا انه كان يعود فيدخن على فترات متقطعة
ولكنه تغلب على تلك العادة عندما حكم العقل والارادة في
مضار التدخين وفيما ينتج عنه من عواقب وخيمة وكانت عادة
التدخين تحمل صاحبنا ما لا طاقة له به لكن كان لا بد مما ليس
منه بد :

وكثيراً ما كان صاحبنا يغادر غرفته بعد الساعة التاسعة مساء
حيث كان يستقل الحافلة الكهربائية ويبقى آخذاً مكانه فيها وهي
ذاهبة آتية حتى تعلن الساعة الثانية عشر عند ما ينتصف الليل .
وكان في بعض الاحيان يقضي معظم الليل على شاطئ البحر حيث
كان يطربه خرير المياه الذي كان يحاكي انغام الموسيقى الشجية

وحيث كانت امواج البحر الصاخبة تغطي على الرمال اللؤلؤية .
وتتحطم تحت اقدام الصخور الصماء . وكان صاحبنا غريباً عن
الاهل والوطن فعانى من الضنك والضييق ولاقى من ضروب
البؤس والشقاء وأصناف الالم والعذاب ما لا فاه لولا ان قيض الله
له رجلاً من مواطنيه طيب النفس كبير القلب دمث الخلق اعانه
على تذليل ما أعترضه من الصعاب والعقبات وكان ذلك الرجل قد
حط في الخمسين ولم يترك ولداً ولم يتخذ زوجاً وكان موظفاً في
هيئة تدعى الهيئة العربية لفلسطين .

وذات صباح قدر لصاحبنا ان يتعرف الى فتاة عفيفة أو قدر
لها ان تتعرف اليه وبعد حديث لا يدري صاحبنا أطال ذلك
حديث أم قصر . قدمت الفتاة نفسها لخدمة صاحبنا ووعده ان
تحضر كلما سئحت لها الفرص لتقرأ له ما يجب ان يقرأه من كتب
الادب والفلسفة والاجتماع وما شاء ان يطلع عليه من مقالات
سياسية واقتصادية . فبرت الفتاة بوعدها ووعدها الحر دين عليه ،
لكن ألسنة الناس لم تلبث ان لاكت صاحبنا وزميلته حتى قال
نفر من الناس انها تحبه ويحبها . وقال آخرون « يا لله فتاة في دور
المراهقة تجالس شاباً في ريعان الصبا » ؟ حقاً ان هذا الغريب وبعيد
عن المألوف ومخالف للعادات والتقاليد والشرائع والحق وهو احق
ان يقال ان اجتماع ذوي النفوس الرفيعة والاخلاق السامية
والحاصل الحميدة من بنات حواء وأبناء آدم لا يخالف الا التقاليد
العمياء والعادات الرجعية الرثة البالية ولا ينافي الا الشرائع التي
أفسدها البشر وشوهوها وسخروها لمنافعهم واغراضهم الدنيوية .

ولما علمت الفتاة بما قيل وبما يقال عنها تأثرت كثيراً واعتذرت
لصاحبنا وانقطعت عن زيارته وتحلت عن معاونته في الدرس
والمطالعة فأسف صاحبنا وشكر لزميلته ما اسدت اليه من
أياد بيضاء وخدمات جلي .

وما هي الا اسابيع قليلة وقليلة جداً حتى نزل بجوار صاحبنا
أسرة من الاسر الفلسطينية الكريمة كانت قد نزحت من بيت
المقدس يوم ان شنت الشعب الفلسطيني هنا وهناك على اثر مهزلة
مثلت على مسرح بلاده ويوم ان سلمت الدول الديمقراطية او قل
الدول التي تدعي الديمقراطية الديار المقدسة لقمة سائغة لشردمة من
الصهاينة ، ويوم ان اضاف العرب لصفحات تاريخهم المجيد الناصعة
البياض صفحات قائمة سوداء ويوم ان اغتصبت فلسطين عنوة من
اهلها وديست كرامة العرب اوقى يوم ان داس العرب كرامتهم
هم انفسهم ويوم ان باعوا ذمهم وضماؤهم بثمن نجس من حطام
الدنيا لا يغني عنهم يوم الحشر شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون الا
من أتى الله بقلب سليم .

فاجبت تلك الاسرة الكريمة صاحبنا وأحبها هو وأنزله كل
فرد منها من نفسه منزلة الروح من الجسد وأنزل هو صفار الاسرة
وكبارها من نفسه منزلة الحبة من الجنان . غير ان الحياة لا تحلو
من المحبة والبغضاء والتعاسة والشقاء ، والرغد والكدر والصفاء
والجفاء . وشاءت الاقدار ان يقع بين صاحبنا وبين احد افراد
تلك الاسرة الكريمة سوء تفاهم كاد يفصم عرى الصداقة الطيبة
والمحبة الطاهرة المتبادلة التي كانت قد تأصلت بين صاحبنا وبين

جميع افراد تلك الاسرة وكاد ينغص عليه عيشه وعلى افراد الاسرة
عيشهم ولكن سرعان مازال عند ما ساس صاحبنا الامر وتدبره
بالحكمة واللين والتسامح وهو يرى ان عتاب الصديق خير من فقدده
وهو يقول مع الشاعر :

إذا ذهب العتاب فليس ود
ويبقى الود ما بقي العتاب

الفصل الثامن

ضحية التعصب الاعمى

كانت جوليت تعمل في الفرع الثقافي في احدى المفوضيات في
بيروت عام ثمانية واربعين وتسعمائة والـ ف م . وكانت حينذاك في
الثانية والعشرين من سننها على حد قولها واكبر الظن وبعض الظن
اثم انها كانت في السابعة والعشرين من سننها او تزيد . وكانت
تتمتع بجانب وافر من الجمال الخلقي والجسدي وهي كمعظم فتيات
عصرنا الحاضر ذات غنج ودلال . خفيفة الظل رشقة الروح ، لطيفة

المعشر أودعها الله عز وجل جاذبية مغناطيسية وابتسامة سحرية
تقصرهم ظهور أشد جباورة الارض صلابة وقوة وتحلب عقول ذوي
الذهي وتبهر ألباب ذوي الالباب . وكانت جوليت حائزة على
شهادة « الانترميديت » التي احرزتها من احد معاهد الولايات
المتحدة الاميركية عام ستة واربعين وتسعمائة والـ ف م . على ماتقول
وشاءت التقادير ان تكون جوليت فتاة مولدة يرجع نسبها الى
احدى الاسر الارمنية اي انها كانت في الاصل ارمنية اميركية المولد
والمنشأ تتكلم اللغة الانجليزية بطلاقة لانها كانت لغتها الاصيلة
وكانت لا تلم بشيء من لغتها . اللغة الارمنية وكانت تلم بعض
الامام باللغة الفرنسية .



وكان الدهر قد عض جوليت بنابه العطبه وظلها بكلكله .
فعانت من متاعب الحياة ومشاقها ما عانته وجرعته صروف الدهر
صنوف المرارة والالام والمهانة والذل ما لا يصبر على تحمله احد ولا
طاقة لسواهابه . وروي لنا صاحبنا قصتها موجزة كما روتها هي له
قال :

« روت لي جوليت انها ولدت في مدينة « ووترتاون » في
الولايات المتحدة الاميركية عام خمسة وعشرين وتسعمائة والـ ف م .
ثم قال : انها روت لي ان والدها كان أقرب الى الفقر منه الى
الغنى وانه توفي على أثر نوبة قلبية أنتابته عام خمسة وثلاثين

وتسعمائة والف م . ولم يخلف ولداً سوى جوليت « . ثم قال صاحبنا :

« ان ام جوليت هي التي تولت تربيتها والاتفاق عليها وعلى تعليمها بعد ان طوت الخرساء جثان والدها . وان ام جوليت : كانت تعمل جادة في احدى مكاتب مدينتها « ووترتاون » لتكسب ما تسد به حاجتها وحاجة فلذة كبدها » . ثم قال صاحبنا :

« ان ام جوليت أصيبت سنة احدى واربعين وتسعمائة والف م بوباء التيفوئيد وظلت طريحة الفراش مائة يوم حتي عاجلتها ساعة المنون فقضت نحبها بعد ظهيرة اليوم الحادي عشر من شهر كانون الاول عام واحد واربعين وتسعمائة والف م ، وتركت وراءها ابنتها جوليت تصارع الحياة والحياة تصارعها طيلة أربعة أعوام . لاقت جوليت خلاها من ضروب الضنك والضييق وأنواع النكد والكدر مالا لاقته الى ان قبض الله لها ان تغادر مسقط رأسها مدينة « ووترتاون » الى لبنان لتعمل كسكرتيرة في الفرع الثقافي باحدى المفوضيات في مدينة بيروت » .

ومنذ وطئت قدما صاحبنا ارض لبنان الجميل شاعت الاقدار وحكم عليه الزمان ان يتعرف الى جوليت او اقل حكم الزمان على جوليت وساقها القضاء والقدر الى ان تلتقي بصاحبنا وتعرف اليه بعد ظهيرة يوم من ايام الاحاد عام ثمانية واربعين وتسعمائة والف م يوم ان كان يتنزه في حديقة الصنائع في بيروت . وبعد ان عرفت

جوليت صاحبنا وعرفها هو ايضاً شرعت جوليت تحدث صاحبنا
عمّا في بطون التاريخ والفلسفة والادب من ايجاد وآثار رفيعة
خلقها عظماء المكفوفين من السلف وراحت تقص عليه قصة الشاعر
اليوناني المكفوف هوميروس وتحديثه عن ألياذته وعن ملتون
الشاعر الانجليزي المكفوف وعن فردوسه المفقود وعن الشاعر
العربي الالكمة المخضرم بشّار بن برد وعن الفيلسوف المكفوف •
أي العلاء المعري ، وعن هيلين كير وعن الدكتور طه حسين .
وبعد ان تحدث صاحبنا وجوليت زمناً طويلاً . والتقيا مرات
ومرات في اماكن مختلفة فاجأت جوليت صاحبنا بمفاجأة لم يكن
يظن بها ولا خطرت له ببال . وكانت هذه المفاجأة يوم ان زار
صديقنا جوليت في مكتبها اذ قالت له بعد ان تناولا شيئاً من
الشوكولاته .

« كنت قد اتخذتك صديقاً لي منذ شهر غير انني لم
كتف بهذه الصداقة ولن تقف مطامعي بشخصك عند هذا الحد »

فقال صاحبنا :

« ماذا تعنين بقولك هذا يا جوليت افصحني عما في ضميرك ولا
تبقي شيئاً غامضاً وكوني صريحة فصديقك يحب الصراحة »

فنهضت جوليت من مقعدها بثقل وبطء وتأبطت ذراع
صاحبنا وسارت الى جاذبه على استحياء ، وقالت : له بتردد وتلعثم
وحمرة الجبل تعلقو بحياها .

« ان الحب اجمل واقدس شيء في الوجود وان الحياة جميلة واجمل فترة فيها هي تلك الفترة التي يقضيها الشاب بين ذراعي زوجة مخلصه تحبه ويحبها وتشاركه في افراحه واتراحه »

فافتقر ثغر صاحبنا عن ابتسامة ساخرة وقال :

« ماذا تعنين بسياسة هذا الحديث يا جوليت صرحي بمكنونات صدرك فصديقك لا يفهم الرموز وغرامض الامور »

فتنهدت جوليت وتأوهت من اعماق صدرها وقالت :

« الحقيقة انني احبك وان حبك قد تبوأ عرش قلبي وان نار حبك تلتهب بين ضلوعي وتلتهم احشائي فهل تحبني كما احبك ؟ وهل تبادلني حباً بحب ؟ »

وما كادت جوليت تتم هذه العبارة حتى غاص صاحبنا في خضم من الافكار والهواجس وتراءى له انه في عالم غير هذا العالم لكنه بعد لحظات استعاد نشاطه وافاق من سكرته وقال :

« يبدو لي يا جوليت انك تحبينني وانك تريدان ان تقترني بي لكنك نصرانية وانا مسلم ولا اظن ان والدي سيوافقان على اقتراني بك »

فقات جوليت :

« انك تدين بالاسلام والاسلام دين لا يحرم الزواج من فتاة كتابية او نصرانية ونحن النصارى من اهل الكتاب ودينكم يقر هذه الحقيقة » ثم قالت :

« لا شأن لوالديك في امر زواجك فأنت الذي ستتحمل تبعات الزواج لا امك ولا ابوك ولا عمك ولا خالك »

فرضخ صاحبنا لرغبة صديقه جوليت وكتب لوالديه في هذا الامر لكنه حدث ما لم يكن بالحسبان اذ انقطعت عنه مراسلات والديه مدة ستة اشهر وغضبا عليه غضباً شديداً وحذراً من الزواج من تلك الفتاة لكن صاحبنا اصر على الزواج وبالرغم من تحذير والديه واخذت صديقة صاحبنا تعد عدة الزواج وتتهيء لصاحبنا سبيل السفر الى الولايات المتحدة الاميركية فطلبت اليه ان يحضر جواز سفر مع العلم بأن صاحبنا لم يكن قد حصل على جواز سفر منذ حداثة سنه فطلبت اليه ان يتأردن لكن صاحبنا رفض رفضاً باتاً طلب صديقه جوليت فقالت له :

« ان كنت لا تود ان تتأردن فتأردن ريثما تصل الى الولايات المتحدة الاميركية وهناك تتامرك »

وكاد صاحبنا يستجيب لرغبات صديقه لولا ان تذكر والديه وما ورد في القرآن الكريم بحقتها « وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً » لكن حواء التي هي خير كلها وشر كلها تأتي الا ان تكون اساس البلاء وحواء قادرة على ان تصرف الانسان البسيط عن اهدافه كما صرفت

امنا حواء الاولى ابانا دم الاول عن طاعة ربه وكانت النتيجة طرده من الجنة . وكان لا مندوحة لصاحبنا من ان يطيع صديقه جوليت طاعة عمياء وان يتم خطوبته عليها بأغراء منها في صبيحة اليوم الاول من شهر كانون الثاني عام خمسين وتسعمائة والف م . وشأت الصدف ان يكون ذلك اليوم هو يوم الاحد ويوم عيد ميلاد الرسول الأعظم محمد ﷺ وعيد رأس السنة الميلادية ولكن تلك الخطبة لاقت معارضة شديدة فعالة من قبل والدي صاحبنا وذويه ، وراح صاحبنا ، يقنع اهله وذويه ان زواجه من تلك الفتاة لا يضره شيئا ولا دخل لهم فيه الا ان والدي صاحبنا تألبا عليه وفسخا خطبته في اواخر شهر ايلول عام خمسين وتسعمائة والف م ، فتأملت صديقة صاحبنا جوليت أيما تألم لهذه المصيبة التي حلت بها واختطفت من بين احضانها حبيب قلبها الذي بوث به واخلصت له وعاهدته على الاستمرار في حبه عندئذ ادركت جوليت ان احلامها تحطمت أو سوف تتحطم على صخور العادات الرجعية والتقاليد البالية فديجت لصاحبنا رسالة باللغة الانجليزية اودعتها مكنونات صدرها وخبايا نفسها فقالت :



« ان قلب حبيبتيك جوليت مفعم بحبك وهو يزخر بأرق العواطف وأسمها نحو شخصك الكريم . لقد كان قلبي يخفق لرؤيتك وها هو الآن في خفقان دائم وكيف لا يخفق قلب حبيبتيك وقد طبعت صورتك الملائكية على صفحاته وانني لأراك في كل

وقت وروحي ترافقك في كل حين وان طيفك لا يغادرني في ليالي ولا في نهاري وهو معي أينما كنت وحيثما حلت .

فهل لي ان اعلم ان قلبك يبادلني هذا الشعور النبيل السامي ؟
فان كان ذلك فساً كون اسعد مخلوقة على وجه هذه البسيطة .
ثم قالت « جوليت في رسالتها :

« ان القلوب الصادقة النيرة تتقارب بل واكثر من ذلك فانها
تتصادق وتتحاب وتتعانق .

ولكن ان قدر لقلبها ان لا يبادلها المودة من شغلت به حتي
عن نفسها فستكون سعيدة ايضاً لان جل ما تطلبه كما ورد في
رسالتها ان يكون صاحبنا سعيداً في حياته » . ثم قالت جوليت

« انها ليست بالانانية التي تؤثر سعادتها على سعادة صاحبنا
وهناؤه وانما ستبذل حياتها في سبيل سعادته وهناؤه . » ثم قالت

انها اليوم في اشد الحاجة الى عطف صاحبنا وحنانه ولا تظن
انه يرضن بها عليها . وألحت جوليت على صاحبنا ان يبادلها بعض ما
وقفت عليه قلبها نحوه ثم قالت ان ذلك يكفي لان يضاعف نشاطها
ويعقق سعادتها وان يعوضها عطف الامومة والابوة اللذين حرمت
منهما منذ نعومة اظفارها . وانتهت جوليت رسالتها بتفاؤلها في

عودة صاحبنا الى صوابه . وقالت :

« انك يا صديقي انيسي في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة »
وما كاد صاحبنا يتم قراءة رسالة صديقه جوليت حتي استولى
عليه الذهول ورأى نفسه في موقف حرج لانه ارغم علي مقابلة
الاحسان بالاساءة والمحبة بالبغضاء او قل تكلف البغضاء . وبعد
ان خيم عليه السكون والصمت الرهيب قادته افكاره الى ان
يكتب لصديقه رسالة يودعها فيها الوداع الاخير ويبين لها الاسباب
التي حالت بينه وبين ان تصبح شريكة حياته فقال في رسالته :

« ان فراقك يا جوليت اثار في نفسي الشجون واثنى قلبي .
المضطرم بحبك بالجراح والالام وجلب لي كثرة النواح وحجب
الي العزلة والانفراد . »

ثم قال صاحبنا :

« انه احب جوليت منذ ثلاثة اعوام ، فيادلتها حباً مجب .
وكان حبها عقيفاً طاهراً لا يشوهه شيء وكانا يهدفان من وراء
حبهما الى السعادة والهناء بعد ان عشق قلب صاحبنا قلب صديقه
جوليت وألفت روحه روحها ورأى صاحبنا ان الفضيلة مجسمة في
شخص جوليت . ثم قال صاحبنا في رسالته :

« ان جوليت فتاة نبيلة مرهفة الاحساس رقيقة الشعور سليمة
الذوق جميلة الخلق والخلق » وقال :

« ان طيفها لا يغادره وان طيفه لا يغادرها وان كليهما محب

للآخر يبذل حياته في سبيل سعادة محبوبه ويضحى بنفسه وبكل
ثمين من اجله » ثم قال صاحبنا :

« ان في قلبه معبداً نحت فيه تمثال للجمال وان فيه هيكلاً
تقام فيه صلوات الحب . »
وختم صاحبنا رسالته بقوله .

لقد دعيتني ارادة أهلي وذوي . الى فراقك يا جوليت فشاء
القضاء ان تنفصم عرى المودة التي كانت تربط بين قلوبنا فأنفصمت
تلك الصداقة التي كانت تجمع بيننا فامتعضت لهذا الدعاء واهتوت
قلبي لشدة صدها ولكن لا بد من الخضوع له واستجابتي الى ما
يحبه ويرضاه . ثم قال صاحبنا في رسالته .

« لا تخنقي علي يا صديقتي اذا ما ودعتك اليوم الوداع الاخير
ولا تسخطي علي لاني لبيت نداء من اوصاني الله بهما خيراً وعدم
معصيتهما وترككك تلبية لرغبتهما اعذريني يا صديقتي جوليت فان
الذنب ليس ذنبي ولست انا الجاني بل المجنى عليه . »

« هذا جناه أبي وما جنيت على احد »

وداعاً يا صديقتي جوليت . وداعاً يا آية في الجمال والابداع .
ويا مثلاً للوفاء والاخلاص والنبيل والفضيلة .
وداعاً ايها الفتاة المثالية . وداعاً لا لقاء بعده .



الفصل التاسع

سر النجاح

•

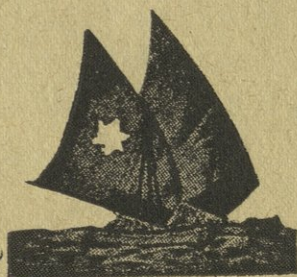
كان من المتعذر على صاحبنا دخول مصر العزيزة لانه فلسطيني فقط . وكان من المتعذر على كل فلسطيني بعد ان اغتصب وطنه عنوة وبعد ان اخرج من دياره مكرهاً وظلماً وعدواناً ان ينتقل من قطر الى قطر . حتى ولو اراد الانتقال الى قطر من اقطار وطنه العربي لكي لا يصبح عالة على ابناء وطنه وبني امته وجنسه في ذلك القطر . وكانت هذه الصعاب كافية لان تخفف من همة صاحبنا وعزيمته وان تجعل من تقاؤه الحُصْب تشاؤماً مجدياً وان تقلب آماله واحلامه الى يأس وقنوط وكاد صاحبنا ان يستسلم لليأس ، وان يذعن الى الفشل وان يقطع من رحمة الله . لولا انه كان يؤمن ان اكثر الناس نجاحاً اكثرهم استعداداً للفشل وتحمل صدماته وقساوته . وكان صاحبنا

حسن التقدير لأعماله وأعمال غيره وكان جاداً في عمله مواظباً على تحقيق رغبته وإتقان عمله . وكان صاحبنا بالرغم مما صادفه من الصعاب والعقبات دائباً على عمله لا يثنيه عنه شيء . وكان ذا أمل دائم وكبير وكان أملة لا يحبوا لأنه كان يتفجر من نبع دفين في نفسه السليمة . وكان صاحبنا لا يتأثر بالظروف المحيطة به ولا بمدى نجاحه أو فشله في أي عمل من الأعمال . وكان صاحبنا يوقن الا مندوحة لطالب النجاح الحقيقي من المساهمة في سبيل خدمة الآخرين غير ناظر الى اعترافهم بالجميل أو نكرانهم له مساهمة فعالة صادقة . وكان صاحبنا مستهيناً بالفشل لا يعد من تدفعه قوة التنافس الى الامام في زمرة الناجحين . وكان يعد في زمرة الناجحين أولئك الذين يسخرون من الفشل ويعرفون كيف ينهضون كلما سقطوا ليستأنفوا السير في طريقهم بقوة ونشاط . ولو سقطوا عشرات المرات . ولولا ان كان صاحبنا كذلك لترك الحياة المدرسية وغادر ميدان العلم ولقدف بنفسه الى مدرسة الحياة وراح يكدح ويكد في ميدانها العملي .

كانت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت قد اغلقت القسم الانجليزي الذي كانت قد استحدثته في الكلية منذ عهد قريب وما لبثت ان افتتحت القسم الابتدائي منه من جديد وكان لا مندوحة لصاحبنا من الالتحاق بقسم البكالوريا بكلية المقاصد الاسلامية . وكانت اللغات التي تدرس في كلية المقاصد اللغة العربية والفرنسية والانجليزية وكانت اللغة العربية أقوى هذه اللغات واما اللغة الانجليزية فكانت اضعفها فاضطر صاحبنا الى ان يلتحق

بمدرسة «هدي» للمكفوفين بالمراسلة في الولايات المتحدة الاميركية
وكان يدرس فيها اللغة الانجليزية بالخط النافر على طريقة (برايل)
وكان يدرس المواد الاخرى باللغة العربية في نفس الكلية . وكانت
قد اعترضت صاحبنا اثناء دراسته صعاب شديدة وعقبات كأداء
لقلة الذين كانوا يتبرعون لمعاونته ويضجون بأوقاتهم الثمينة في
القراءة له ولعدم وجود كتب مطبوعة بالخط النافر على طريقة
«برايل» باللغة العربية . وكان يشد ازر صاحبنا في دراسته بعض
اصدقائه وبعض زملائه الذين التحقوا بالقسم التجاري في كلية
المقاصد الاسلامية اضطراراً او اختياراً . وكان من المحال ان
يدرس صاحبنا العلوم الطبيعية والرياضية وان يجاري اخوانه فيها
وكان يرى الاستفادة له من دراستها . وكان استاذ الادب العربي
والفلسفة الاسلامية في كلية المقاصد الاسلامية قد ابى ان يصحح
اصاحبنا ، بادىء ذي بدء ، الموضوعات الادبية التي كان يعالجها صاحبنا
هو وسائر زملائه وقد اعاد الاستاذ بعض الموضوعات دون ان
يصححها او يطلع عليها ، لكنه ما لبث ان عاد الى جادة الصواب
وعامل صاحبنا كما كان يعامل زملاءه وكان ذلك بايعاز من عميد
الكلية وكانت علامات صاحبنا ادنى علامات في صفه وكانت
اقل وأقل مما يستحق وخاصة في الادب والفلسفة والتاريخ لانه كان
يؤدي الامتحانات في هذه المواضيع الثلاثة شفهاً ولا يمكن ان
تعطي الامتحانات الشفوية فكرة عن غزارة مادة الطالب ومقدرته
فيها وفيما تعلم . ولا يتسنى للممتحن ان ينصف الممتحن في هذه
الحال .

وفي أوائل شهر حزيران عام خمسين وتسعمائة والف م .
 فاز صاحبنا بالقسم الاول من شهادة البكالوريا . الفرع الادبي
 بدرجة جيدة فدبج رسالة الى عميد الجامعة السورية ضمنها طلب
 الالتحاق بالجامعة وهو يردد في نفسه قول الشاعر :
 لا تيأسن اذا كبوتم مرة . ان الزجاج حليف كل مثابر
 وشاءت الصدق ان يكون عميد الجامعة السورية حينذاك
 نائب رئيس الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً لكن كان نصيب
 طلب صاحبنا الفشل وكان رد عميد الجامعة عليه رداً سلبياً فعاد
 صاحبنا وتابع دراسته في كلية المقاصد الاسلامية فأحرز القسم الثاني
 من شهادة البكالوريا الفرع الفلسفي بدرجة جيدة في أواخر شهر
 حزيران عام واحد وخمسين وتسعمائة والف م .



الفصل العاشر

الصدمة الكبرى

•

أخذت صاحبنا نشوة الانتصار عندما ظهر على منصة الاحتفال بتوزيع الشهادات في باحة كلية المقاصد الإسلامية في بيروت وهو يرتدي بذلته البيضاء ويختال بين زملائه وعلامات الزهو والكبرياء ظاهرة على محياه . وكان صاحبنا في تلك الآونة يظن انه وصل الى ما لم يصل اليه سواه واصبح على جانب وافر من العلم والثقافة .. فغادر صاحبنا مكانه على المنصة حاملا الشهادة بيمينه والموسيقى تصدح بالانغام الشجية التي تشنف الآذان وتصل النفوس . وفي تلك الفترة كان صاحبنا يفكر في مصيره وحيء نفسه لمرحلة التخصص . وما ان انفلق فجر تلك الليلة حتى اعد صاحبنا طلباً الى وزارة المعارف المصرية يطلب فيه الانتساب الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .

وفي ٦ ايلول سنة ١٩٥١ تسلم صاحبنا كتاباً من وزارة المعارف المصرية جاء فيه : يشترط الحصول على نسخة طبق الاصل عن الشهادة مصدقة من قبل من صدرت عنهم ، ومن قبل وزارة التربية الوطنية اللبنانية ووزارة الخارجية اللبنانية والمفوضية الملكية المصرية في بيروت . على ان ترسل هذه الشهادة بعد التصديق عليها بواسطة حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية في دمشق : »



ولما تسلم صاحبنا هذا الكتاب هرول الى حضرة مدير كلية المقاصد الخيرية الاسلامية وناولوه الكتاب . ولما اطلع حضرة المدير على الكتاب قال صاحبنا : « انهم يطلبون المستحيل ولم يسبق لهم ان طلبوا مثل هذا الطلب من احد سواك . » فعاد صاحبنا وكتب الى حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية بدمشق يطلب منه ايضاحات واسعة حول الموضوع . وبعد بضعة ايام حمل ساعي البريد لصاحبنا كتاباً من حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية جاء فيه : « على طالب الانتساب الى الجامعات المصرية الحصول على نسخة طبق الاصل عن الشهادة التي يحملها مصدقة بمن صدرت عنهم الشهادة ومن قبل الدوائر والمراجع المختصة للتأكد من صحة صدور الشهادة بطرق قانونية » . فحمل صاحبنا الكتاب وذهب الى كلية المقاصد الخيرية الاسلامية واطلع

حضرة المدير عليه . فقال المدير لصاحبنا : « لم يسبق لهم ان طلبوا هذا الطلب من احد سواك ويبدو ان شهادتنا اصبحت غير مقبولة عندهم . »

وفي صبيحة اليوم التالي غادر صاحبنا بيروت الى دمشق فقابل حضرة الملحق الثقافي للمفوضية المصرية هناك وسأله فيما لو كانت شهادة كلية المقاصد في بيروت تجيز حاملها الانتساب الى المعاهد المصرية أم لا . فأجاب حضرة الملحق الثقافي : « ان شهادة كلية المقاصد الاسلامية في بيروت معترف بها رسمياً من قبل الحكومة وهي تجيز حاملها الانتساب للجامعات المصرية . »

فأطرق صاحبنا قليلا ورأى ان يترث ويبقى في دمشق لعله يتمكن من الانتساب الى كلية الحقوق بالجامعة السورية . وفي صبيحة اليوم التالي ذهب ليقابل عميد الجامعة السورية الا ان العميد رفض مقابلته ، وبعد جهد جهيد ، استطاع ان يقابل نائب العميد وان يعرض عليه طلبه . فأجاب نائب العميد : « ان الجامعة السورية تتمشى على قواعد عامة لا يمكن استثناءها . ولم تعد الجامعة لتدريس العميان . » فقال صاحبنا : « ليس في الشرق العربي جامعة لتدريس العميان . ولهذا يجب ان تسهل سبل الدراسة للعميان حتى يصبح لهم جامعة خاصة بهم . »

ولما اغلقت الجامعة السورية ابوابها في وجه صاحبنا : طرق ابواب وزارة المعارف السورية علها تجد لمعضلته حلاً الا انها حذت

حذو الجامعة واوصدت ابوابها في وجهه . فعاد الى بيروت وطلب من المفوضيه المصريه ان تمنحه تأشيرة سفر ليتمكن من دخول القطر المصري ومن الانتساب الى احدى جامعاته الا ان الموظف المسؤول اجابه : « ان هذا غير ممكن ولو كنت غير فلسطيني لامكن ذلك » فحار صاحبنا في امره . واعتوته فترة من الذهول والوجوم . وبينما كان صاحبنا يفكر في مصيره قاده افكاره الى ان يكتب الى رئيس الهيئة العربية في القاهرة كتاباً عليه يعينه على الانتساب الى كلية اللغة العربية بالجامع الازهر . الا ان مساعي صاحبنا باءت بالفشل وذهبت آماله ادراج الرياح . فترأى صاحبنا ان يطرق باب العمل فتوجه الى الاردن . ففشل في طلبه .

فضاق صاحبنا ذرعاً بالحياة في الاردن الذي يشن تحت نير الاستعمار البريطاني ويتخبط في واقع اقتصادي سيء وقد بلغ كبت حرية الفكر هناك اقصى حدوده . وخيل لصاحبنا ان الحكومة في الاردن ميتة . والشعب يحتضر . فتترك صاحبنا الاردن وعاد الى لبنان وراح يبحث عن عمل في بيروت يسد به حاجته . وهنا لم يوفق في مطلبه ايضاً .

وبعد ان ضاعت سنة دراسية كاملة من حياة صاحبنا سدى ، تسلم من فضيلة شيخ جامع الازهر كتاباً يقول فيه : « يسمع حامل هذه الشهادة بالدخول الى القطر المصري لينتسب الى معهدنا ، على ان يكون قادراً على الاتفاق على نفسه طيلة مدة اقامته في

القاهرة. «وعلى الفور ذهب صاحبنا الى المفوضية المصرية في بيروت
وعبأ استمارة الدخول الى القطر المصري . وارسلت المفوضية
المصرية الاستمارة الى وزارة الداخلية المصرية .
وفي أوائل شهر ايلول عام ١٩٥٢ كتب صاحبنا الى نائب
رئيس الهيئة العربية في القاهرة وذكر له تاريخ ورقم الاستمارة
ليبحث عنها في وزارة الداخلية ويرسل لصاحبنا الاذن بالدخول الى
مصر . الا ان نائب رئيس الهيئة العربية ادعى ان الاستمارة
مفقودة من وزارة الداخلية .



وبينما كان صاحبنا يواجه الصعاب الشديدة استطاع بفضل ما
أوتيته من قوة الارادة وعدم المبالاة بالفشل ان يلتحق بفرع
الآداب العربية وتاريخ حضارة شعوب الشرق الادنى في معهد
الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت
وامن لصاحبنا حياته بعض العناصر الطيبة من النساء والرجال
في بيروت .

وتمكنت احدى صديقات صاحبنا من حمل طالبات كلية
بيروت الاميركية للبنات على مساعدة صاحبنا . وراحت طالبات
الكلية يتوافدن على مكتبة يافت التذكارية بجامعة بيروت
الاميركية ليقرا لصاحبنا ما شاء من كتب كلما صنعت لمن
الفرص . الا ان استاذة اللغة العربية بكلية بيروت الاميركية

للبنات رأّت ان هذه الطريقة غير مجدية ، وارتأت ان يوضع تحت
تصرف صاحبنا مساعدة خاصة تقرأ له ما شاء من كتب وصحف .
وكان لاستاذة اللغة العربية بالكلمية ما أرادت . وكثيراً ما
كانت تصرف اوقاتها الثمينة وهي تفقش لصاحبنا على ما يريد من
مصادر ومراجع .



الفصل الحادي عشر

ثورة جنونية

كان صاحبنا لما انتهى من مرحلة الدراسة الثانوية ، قد عول على متابعة التحصيل الجامعي العالي ، فطرق ابواب معاهد العلم في جميع الاقطار العربية ، فأوصدت هذه المعاهد ابوابها في وجهه . ولما اخفق صاحبنا في مساعيه ولم يجد سبيلا الى متابعة الدراسة الجامعية ، عاد فطرق ابواب العمل في جميع انحاء الوطن العربي فأغلقت ابواب العمل في وجهه ، لا لعدم كفاءته وأهليته ولكن لأنانية ، من بأيديهم زمام الأمر في هذه البلاد وعدم تقديرهم لمواهب الانسان وللبون الشاسع الذي يفصل ما بينهم وبين مفهوم الانسانية الحقيقي ، ولأنشغالهم بتصالحهم الشخصية وحب الذات عن مصالح المواطنين .

وكم من كفء قطعت عليه الطريق ووضعت امامه العراقيل وسدت سبل الحياة الكريمة في وجهه . وكم من أبلة فتحت له سبل الحياة وذلت له كل صعوبته قبل ان يرتد اليه طرفه .

ولو كان صاحبنا من محاسيب بعض الفئات الاقطاعية والطبقات
 الحاكمة . لما لاقى في حياته من ضروب الضنك والضييق ملاقاة
 ولما عان من الآلام ماعاناه . وان كان النظم الاجتماعية الفاسدة
 السائدة في بلادنا والتي كان صاحبنا وما يزال يتخبط في دياجيرها
 قطعت عليه الطريق ووضعت امامه العراقيل الشائكة وأوصدت
 في وجهه ابواب معاهد العلم ودوائر العمل فلم يتمكن من البقاء
 في حياة المدرسة . ولم يستطع الانخراط في مدرسة الحياة . فوقف
 صاحبنا حائراً مذهولاً لا يملك من ناصية امره شيئاً واصبح في
 حالة هذيان لا يدري ما عساه ان يفعل . وأخذ ينظر الى
 الحياة بمنظار رهيب اسود ولا يرى فيها إلا غمامة سوداء حالكة
 مظلمة . وماذا عساه ان يفعل وهو الذي لا حول له ولا طول ،
 وقد باتت اشباح الجوع والبرد والمرض تهدده وتهدد أسرته ، غير
 النعمة على الانظمة الاجتماعية الفاسده التي يتخبط فيها خبط عشواء
 وماذا تفيد النعمة على هذه الانظمة وهو لا يستطيع تغييرها بمفرده
 ولم يجد الى اصلاحها سبيلاً .

وهذا فقد صاحبنا ارادته وعزيمته ولبه واضطربت اعصابه
 واصبح في حالة اللاوعى فقادته افكاره الى ان يتخلص من
 الحياة وان يتهرب من مسؤولياتها الجسام . فابتاع من بعض
 الصيديات والحوائث كمية كبيرة من حبوب الاسبرين . وابتلعها
 بغير القضاء على نفسه وكانت هذه الكمية كافية للقضاء عليه ، الا
 ان رفاق صاحبنا الذين كانوا يزورونه على فترات متقطعة شعروا بما

عزم عليه صاحبنا . فأجضروا له سيارة الاسعاف حيث نقلته الى مستشفى الرب في بيروت فأجرى له الطبيب الاسعافات اللازمة ورأى ان يمكث صاحبنا في المستشفى مدة من الزمن يسيرة حتى يزول عنه الخطر .

ولما زال الخطر عن صاحبنا غادر المستشفى فوجد قصة انتحاره حديث الناس في المدارس والاندية والمقاهي والشوارع والبيوت والصحف . ولاحظ صاحبنا ان آراء الناس في هذه القصة متضاربة فمن الناس من رأى ان صاحبنا صلب العزيمة قوي الارادة لا يقدم على شيء من هذا القبيل ولا يفرط في نفسه . وان الاشاعات التي دارت حول قصة انتحاره مختلقة ولا أساس لها من الصحة . وكانت ثقة هؤلاء الناس بصاحبنا قوية وهذا ما جعلهم ينفون هذه الاشاعات ولا يصدقون بها مطلقاً .
ومنهم من رأى ان صاحبنا قصد بمحاولة انتحاره مناورة يستدر

من ورائها عطف الناس عليه ويستغل الشعور الانساني . في هذا البلد لمصلحته الخاصة . والواقع ان صاحبنا لم يقصد استدراج عطف الناس عليه واستغلال شعورهم الانساني نحوه . وانه كان في هذيان وذهول محطم الأعصاب عند ما عزم على ارتكاب جريمة الانتحار .

ومن الناس من رأى ان صاحبنا عاشق مدله مقيم بإحدى القيد الحسنان من بنات حواء ، وان اسباب اقدامه على ارتكاب

جريمة الانتحار اسباب غرامية . والحقيقة ان صاحبنا اكبر من ان يهلك نفسه من اجل صلاته الغرامية ببعض القتليات وهو الذي يجد ويكدر في سبيل تأمين حياته وان مشاغله وسعيه للوصول الى هدفه الاسمى كافية بإبعاد هذه المزاعم عنه وبالخيلولة بينه وبين الوقوع في حبائل العشق والغرام في مثل هذه الظروف القاسية من حياته .

وأكبر الظن ان صاحبنا أكبر من ان يلقي بنفسه الى هوة التهلكة من اجل النساء . ولا يعقل ان يذهب حياته سدى بين احضان بنات حواء ، وهو الذي يشعر بخاطر المسؤوليات الملقاة على عاتقه تجاه نفسه واسرته ووطنه السليب وامته المكبلة بالقيود الاستعمارية العائشة . وهو يؤمن ان في عنقه رسالة سامية يسعى الى تأديتها نحو وطنه وأمته ما استطاع الى ذلك سبيلا . وكيف يمكن ان يقضي صاحبنا على شبابه من اجل مشكلة غرامية . وهو الذي يفهم من مفاهيم الحب والجمال ما لا يفهمه سواه .



انتهى الجزء الأول من الكتاب
ويليه الجزء الثاني .

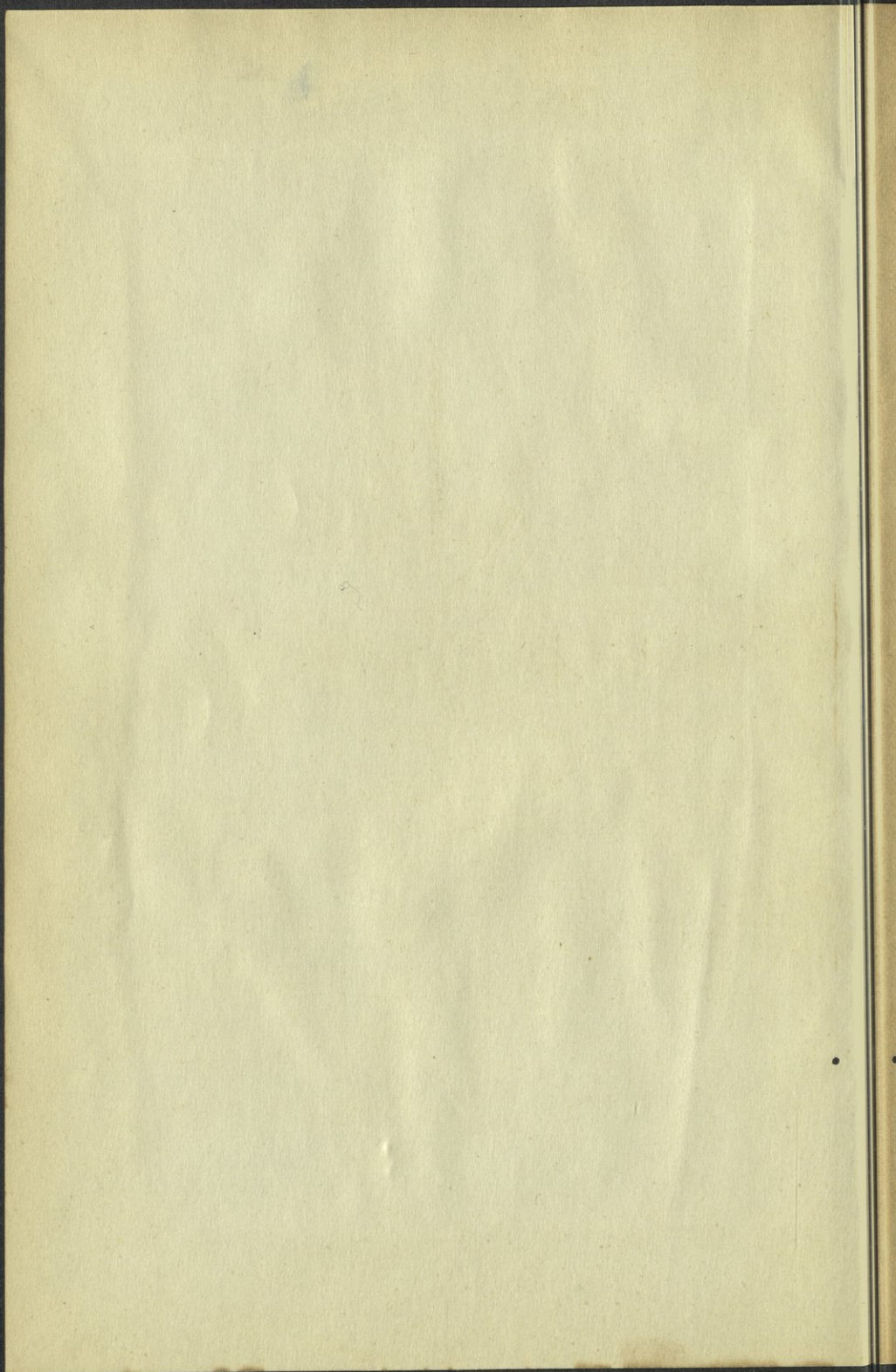
١٩٥٣

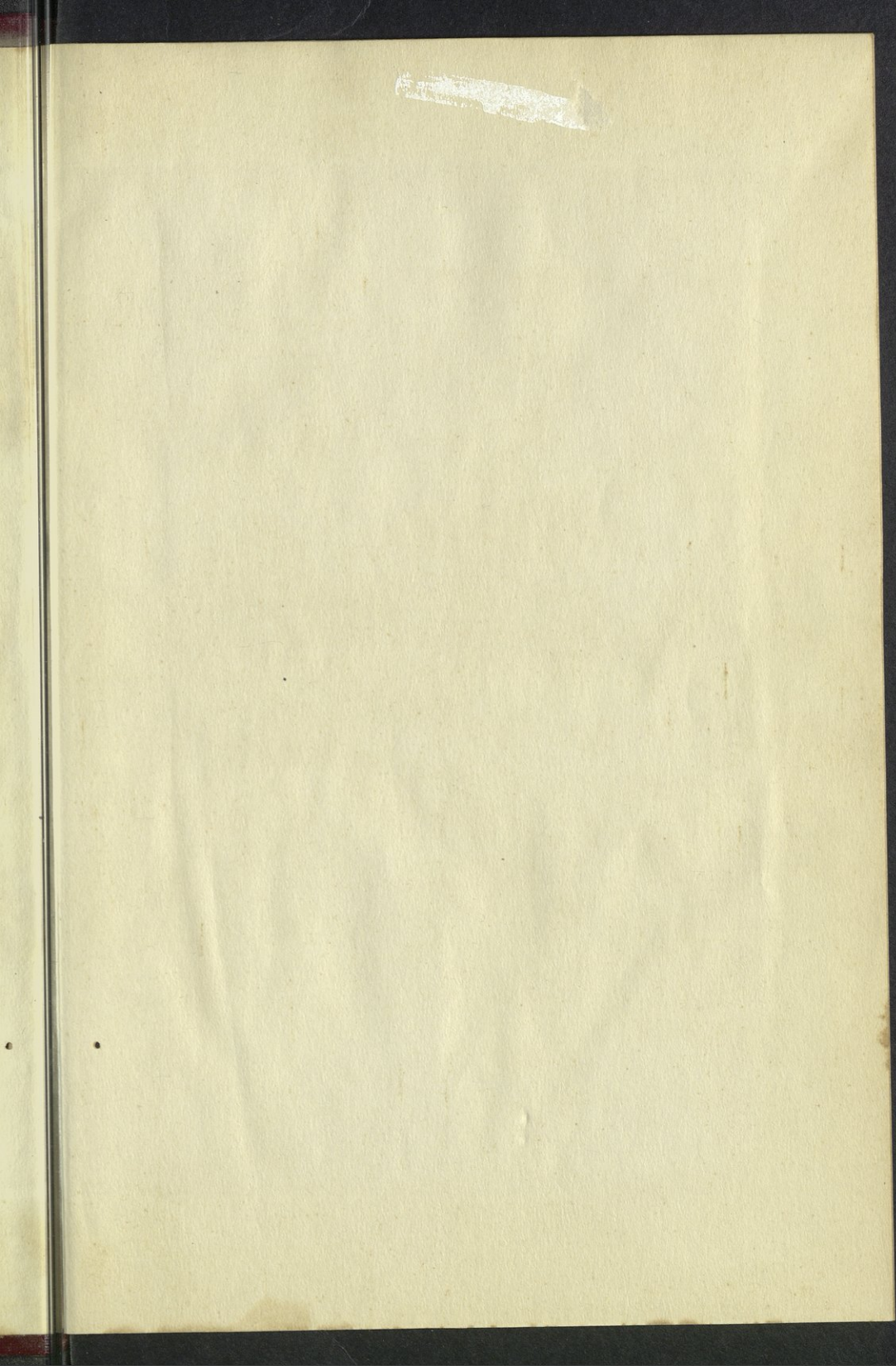
فهرس الكتاب

رقم الصفحة

« « ٩ » »	الفصل الاول « اليوم المجهول :
« « ١٧ » »	« « الثاني « البصر المفقود :
« « ٢١ » »	« « الثالث « الطفل الضريح :
« « ٢٧ » »	« « الرابع « الى الكتاب :
« « ٣٣ » »	« « الخامس « من الظلمات الى النور
« « ٣٩ » »	« « السادس « الى بلاد الأرز :
« « ٤٥ » »	« « السابع « زهرة في حقل عوسج
« « ٧١ » »	« « الثامن « ضحية التعصب الأعمى
« « ٨١ » »	« « التاسع « سر النجاح :
« « ٨٥ » »	« « العاشر « الصدمة الكبرى
« « ٩١ » »	« « الحادي عشر « ثورة جنونية







18.0612Yea.v.1:c.1
القاضي، طه محمد
على مسرح الحياة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



American University of Beirut



B
K112 KA

v.1

General Library

892.78
Q254Y2H

v.1
c.1